مجرد منديل

مجـــرد منـديـــل

مجموعة قصصية

منى محمد سليمان

للنشر والتوزيع
Arabic Library

اسم الكتاب: مجرد منديل
اسم الكاتب: منى محمد سليمان
تدقيق لغوي: فريق المكتبة العربية
تصميم الغلاف: محمد مجاهد
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولى – ٢٠٢٠ م
رقم الإيداع: 2020 / 13163
الترقيم الدولي: 978 – 977 – 85721 – 6 – 2

arabiclibrary2017@gmail.com
almaktaba79@gmail.com
Facebook.com/arabiclibrary2017
01030365801 - 01014977934

جميع الحقوق محفوظة
للمكتبة العربية للنشر والتوزيع، ولا يجوز استخدام أي من المواد التي يتضمنها هذا الكتاب، أو استنساخها أو نقلها، كليا أو جزئيا، في أي شكل وبأي وسيلة، دون الحصول على إذن خطي من الناشر.

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

ربما أنَّه ليس للمنديل في زمننا هذا صلة عاطفية لا بالعشاق أو بقصص الحُب .. إلا أنَّه في زمني الذي نسجته عند ضفاف نهر مخيِّلتي هو رمز لذلك ولذاك ..

منديلي ..

ليس مجرَّد منديل ..

مُلفتٍ للنظر .. يجتذب الأنامل إليه .. غالي الثمن ..

ربّما أنَّه عند البعض كذلك ..

إلا أنَّه في نظري يبقى ..

الشاهد الوحيد على كلِّ الأحداث التي سأتلوها ..

زوجة بمقابل

هاتفه يرن وما من مجيب ..

أيام وهو مغلق ..

لم تسمع صوته منذ مدة طويلة ..

لم تر حتى وجهه ..

تجلس منفردة على طاولة الطعام تنتظر عودته، وربما تحوَّل الغداء إلى عشاء .. وبالرغم من علمها أنَّه لم يلتفت إلى الوقت ولم يتكبَّد عناء التفكير بها وهو يتناول ما لذَّ وطاب برفقة صحْبه وأحبابه إلا أنَّها مع ذلك تنام بمعدة خاوية ..

أتى مستعجلا وخرج مستعجلا ..

لم يُلقِ التحية ولم يقل إلى اللقاء .. ولربما أنَّه صافح مقبض الباب أكثر ممّا صافحها ..

أحاديثه مقتضبة ..

وتنحصر إجاباته بين نعم ولا ..

أمّا ابتسامته فقد غابت مُذ أفلت شمس أبيها ..

كُلّما كانا معًا ..

تلك الدقائق البسيطة التي لا تُعد والتي لم تكن يومًا لها ..

كان الشرود والتململ جليسه وقرينه ..

هي أمامه وهو لا يشعر بها ..

لا يلتفت إليها مهما بذلت من جهد ..

وكأنّما قد أغلق في وجهها كُلَّ منافذ الإدراك التي قد تستوعب بذلها ..

كالحاضر الغائب ..

موجود وغير موجود ..

لا يدري ..

حجم الحب الذي يحوم حوله ..

يتتبَّع آثاره حتى إذا ما أغلق الباب لم يقف مكتِّفا ذراعيه بل فتحه ولحق به ..

إنه الشوق إليه قد صنع من الفراغ الذي خلَّفه قلبًا ضمَّه إليه آملا ..

ذلك الأمل الذي لم يزل متشبِّثًا بشعاع الشمس الزائف حتى تداعى كلُّ شيء ..

الحُبُّ .. الشوق والأمل ..

لم تستطع مجتمعة أن تُنافس ..

قسوة الفراق .. ألم الوحدة .. وشعور المرء بالإهانة .. لتطيش كفة الميزان ..

رسالة من رقم غريب استقبلها هاتفه النقّال ولفضوله فتحها .. لقد كانت منها وقد تعمَّدت إرسالها بهذا الشكل حتى لا تُحذف قبل أن يُعرف مضمونها الذي كان:

" يكنيني الناس بزوجة فلان إلا أني لا أتجاوز قطعة أثاث مرمية في أحد الأركان، بل أنا أسوأ من ذلك .. أنا تلك المنبوذة المصابة بمرض لعين ذي عدوى قاتلة لا يتجرَّأ أحد على لمسها أو الاقتراب منها ..أعلم بأني مهما قلت وفعلت فلن يتغيَّر شيء .. لن تهتم بي كزوجة ولن تلتفت إليَّ كفتاة التقيت بها صدفة.. أعلم بأنَّك تنتظر موتي لترث كلَّ شيء .. أتساءل أحيانا لِمَ لم تقتلني أو ترسل قاتلا لتحصل على كل شيء .. ربما أنَّه ضميرك من يصدُّك عن ذلك .. هذا جيد .. فعلى الأقل هناك ما هو حيٌّ في داخلك .. ولربما أنَّك تفكِّر بأمر ما .. من يدري .. فأنا الساذجة التي يحلِّق كل شيء من فوق رأسها .. أعلم بأنك تعاني طول الانتظار وترهق نفسك لإنهاء تلك الثروة حتى يأتي ذلك اليوم .. ولكن الوقت قد يطول .. فما رأيك بمن سينهي معاناتك ويريحك من تعبك .. هناك شرط إن قبلت به منحتك نصف ثروتي .. نصف مليار دولار دون زيادة أو نقصان .. التفاصيل عند

محاميّ .. تحدَّث إليه .. وإن قبلت كان لك ما أردت وبقبولك سينتهي كلِّ شيء بيننا " .. وعلى عجل التقى بمحاميها الذي قدَّم له ظرفًا قرأه وعقدًا موقَّعًا من قبلها .. وقَّعه .. وقبيل المساء بقليل كان في المنزل الذي لم يطأه منذ مدة .. عاد مُبتسمًا على غير عادته .. متبدِّل الحال .. يعاملها كزوج مُحب بل كعاشق متيَّم .. تناول العشاء بصحبتها مُستمتعًا وتحدَّث معها كما لم يفعل من قبل عن طيب خاطر، وأخيرا ولجا إلى مخدعهما .. استحمَّ وغيَّر ملابسه وانتظر عودتها من غرفة التبديل .. لحظات تفاجأ بعدها .. عروسنا التي لم تُمَسَّ بعد .. خرجت من هناك امرأة أخرى غير التي كانت منذ قليل فهي كاملة النضوج .. تتدفق أنوثة .. وكلُّ ما فيها يدعو للتأمل .. بدت وكأنَّما برزت للتو من بلورة سحرية .. فهو شعرها المسترسل على أكتافها يداعب أردافها .. وشفاهها التي تعطّرت بلون جذَّاب، وثوبها الأسود الحريري الذي زيَّن قواما ممشوقا كشفت له عن بعض مفاتنه، فألهبت عقله وأجَّجت أحاسيسه كرجل .. مضت تلك الليلة وانتهت، وقبل الفجر بساعة استيقظت واستعدت للرحيل .. رحلت لا تحمل بيدها سوى حقيبة يدها والمنديل الذي أهداه لها .. شاهدي الوحيد على كُلِّ ما جرى ..

لم تستطع التخلِّيَ عنه بالرغم من أنَّه الهدية المُهداة من الرجل الذي لم يبادلها الشعور يومًا وعاملها بامتعاض ..

وعند التاسعة استفاق .. بحث عنها بقربه فلم يجدها .. وبدلا عنها وجد رسالة قصيرة كُتب فيها:

" لا تقلق .. لقد رحلت إلى الطرف البعيد من العالم حيث لن ترى ذلك الوجه الذي لا تطيقه مُجدَّدًا .. لم أتخيَّل يوما أن يكون نصف ما أملك ثمنا لجعل الرجل الذي أوهمني بحبِّه ووقعت بحبِّه يشعر بي .. يلتفت إليْ .. ويمنحني بعضًا من وقته ..

لست نادمة على ذلك الوقت الذي قضيناه معًا، بل أنا ممتنَّة لك .. لأنك كنت صادقًا معي تلك الساعات التي مضت ومع هذا ..

لست مُخطئة ..

فتركُك هو الشيء الوحيد الصحيح الذي كان عليَّ فعله منذ زمن ..

فعلى عكسك تمامًا ..

لديَّ مشاعر وأحاسيس .. لم تُتلفها ..

أموالٌ فانية .. طمعٌ أرعن .. ولم تقع في فخِّ الدنيا كما وقعتَ به أنت ..

أتمنى ألا تجد السعادة أبدا ..

وألا تستطيع شراءها إلا بالمال .. "

رمى رسالتها ولحق بها غير أنَّ طائرتها كانت قد أقلعت .. لم يستسلم .. استغلَّ طائرة خاصة ليصل بالفعل قبلها .. تفاجأت عندما وجدته أمامها وأكثر عندما اقترب منها قائلا:

خذي مالَك ولنعد معًا إلى المنزل ..

ــ ولِمَ عليَّ العودة معك؟

ــ لأني .....

ــ ولكني لم أعد، ثمَّ أعرضت عنه، فحاول منعها، فمنعه مرافقوها بينما تلا عليه محاميها بنود العقد مذكِّرًا إيّاه أنَّ ما بينهما قد انتهى، ولذا فعليه ألا يحاول الاقتراب منها .. الالتقاء أو الاتصال بها بأي شكل من الأشكال

ابتسمت .. إنها السعادة تدغدغ شفاهها لأول مرة منذ مدة طويلة ..

السعادة التي لن يستطيع شراءها بالمال ..

لقد وقع بشرك الحُبِّ الذي تخلّصت منه ..

وعليه أن يتعذَّب الآن كما تعذَّبت ..

هوسٌ سخيف

بعد أن أوصل السائق سيدته إلى المطار وفي طريق عودته انخرط في زحام طويل جدًّا .. ساعتان من الانتظار عاد بعدها إلى المنزل .. عاد فرحًا يُخبئ شيئًا خلفه .. سألها عمّا هو، فمنحته عدة إجابات لم تُصب في أيٍّ منها فلمَّح قائلا: هو شيء لم تتوقفِ عن الحديث عنه مذ رأيته للمرة الأولى .. شيء ترغبين به ولربما أنَّك تحلمين به ليل نهار ..

ــ كركرت مستهزئة: محال أن يكون ما تتحدَّث عنه خلف ظهرك .. إنه غالٍ جدا ولا أظن أن نسخة أخرى عنه موجودة في هذا الكون، كما أنّه ليس لفئة الناس أمثالي .. ذوو البشرة الجافة من أَلِفَتْ الدعك والغسل .. تحدَّثت بأسى بخيبة أمل، انقلبت رأسا على عقب لمّا رأته يرفرف قريبا من أرنبة أنفها .. شهقت ولم تصدِّق إلا بعد أن لمسته بطرف سبّابتها حين شعرت بنعومته تغزو أديم بشرتها: أهُوَ هُوَ ..

ــ نعم .. أهُوَ هُوَ ..

ــ ولكن كيف؟ هل سرقته؟

ــ وهل أبدو لك مجنونًا كي أسرق منديلا .. لقد أعطتني إيّاه السيدة وطلبت مني أن أهديه لك .. يبدو أنها تعلم برغبتك به ..

ــ لا أصدق أنها تخلَّت عنه بهذه السهولة ..

ــ لا أعتقد ذلك .. فلقد ظلَّت شاردة طوال الطريق .. تُخرجه تارةً وتارةً تُدخله حتى إذا ما وصلنا دفعته إليَّ دفعًا وطلبت مني أن أهديه لك .. ثمَّ استطردت وكأنَّما تجيبني على سؤال لم أطرحه: لا عليك .. فهو مجرد منديل .. إنها محقة فهو ليس سوى مجرد منديل .. لا أعلم لم كلُّ هذه الدراما التي تدور حوله ..

ــ أنت مخطئ .. إنه ليس مجرد منديل .. كما أنَّها لم تتخلَّ عنه إلا لسبب دفعها إلى ذلك .. ثمَّ .. يالها من طريقة بشعة لإمساك منديل كهذا ..

ــ يا امرأة .. إنه من حرير ولن يتأذى ..

ــ حتى ولو كان مصنوعا من ريح، فليس هكذا يُعتنى بالأشياء الثمينة .. أتريد أن أعاملك بتلك البشاعة ..

ــ لا ..

ــ إذن .. فلا تعترض ..

وبجدية بالغة التقطته بين إصبعيها ووضعته فوق الكنبة .. تأمَّلته لثوانٍ .. ثوانٍ كانت كافية لغسل دماغها ولإحياء طقوس مجنونة كادت أن تحطِّم مستقبلها ..

لم يكن التغيير مُلفتًا للنظر في البداية، فهي تعتني به كما تعتني أي امرأة أخرى بممتلكاتها الغالية إلا أن ذلك المفهوم الوديع طغى واستعلى حتى تخطّى حدودا ما كان عليه تجاوزها ..

أن يتحول الاهتمام من شخص إلى شيء .. أن يصبح ذلك الشيء حيًّا .. أن تندفع تلك الحياة الجديدة في أركان محرمة من غرفتها فيستحيل العش الذي جمع بين زوجين إلى طاولة قمار .. الكل حولها يراهن على قدرته على الاستمرار .. غير أن الكل فيها خاسر .. فلقد طاش عقله وجنَّ جنونها ..

كيف؟

ــ لقد أرهقت ميزانيته ..

فعدد مساحيق التنظيف والتعقيم قد تضاعف ذلك أنّها باتت تهتم بنظافة المنزل كُلِّهِ الآن .. تخشى أن يقع منديلها الغالي فوق منطقة موبوءة وفي هذا .. مبالغة ..

ــ لقد افترشت لغرورها أرضًا جديدة ..

فهو منديل كي تخرجه من حقيبتها أثناء المناسبات، فهي ترتدي قفازات نظيفة ولمصافحتهم هناك أخرى .. لا تسمح لأحد بلمسه، فقط النظر إليه من بعيد .. تخشى هالة الغبار الوهمية التي تحيط بهم .. تفعل ذلك

بغرور مصطنع وكأنَّ الذي بين يديها كنز يتلف بمجرد اللمس أو يختفي بمجرد النظر .. وفي هذا .. مبالغة ..

ــ وتلك اللحظات الخاصة التي تجمعهما معا .. النادرة بسبب طبيعة عمله .. هاهي تجري على عجل .. تخشى عليه أن يُسرق .. كلّما سمعت صوتا إثر جنونها تركته فجأة .. تتفقَّده لتجده مُتنعِّما فوق فراش وثير وسط مَجمعٍ من الزهور البهيَّة ذات الرائحة الزكية ..

ــ لم تعد كما كانت .. كانت تثرثر، فأصبحت قليلة الكلام كثيرة الطلبات .. هزيلة ممتلئة بالوساوس والأوهام .. حذرة غاضبة باستمرار .. لم تعد تهتم لوجوده أو تترقّب عودته .. لم تعد تكترث لطعامه أو تُلقي بالا لصحته .. هي في واد وهو هناك خلفها مباشرة يحاول جاهدا إخراجها مما هي فيه، حتى أتى يوم هدَّ كُلَّ جهوده ..فارقه فيه صبره وجعله يدرك أمرًا أنَّ حُبَّه لها يستدرجه إلى جنونها ..

فقد أتت والدته المُسنة لزيارتهم ذات يوم على غفلة منهم .. فمنعتها من الدخول تخشى كمَّ الأمراض التي يحملها جسدها المُهترىء .. حاول إقناعها بفتحه فأبت، وتحت إصراره رضخت، وما إن خرج لاستقبالها حتى أقفلت الباب خلفه .. خجِل من تصرفها واعتذر من أمه التي دعاها لتناول العشاء معه في أحد المطاعم، ولكنها رفضت وفضلت العودة إلى منزلها

فأوصلها .. عاد الزوج المخدوع غاضبًا .. لم يفتح الباب فتحًا بل حطَّمه تحطيمًا ثم بحث عن منديلها الغالي .. حطَّم الصندوق الزجاجي الذي يكتنفه .. أخذه وسار به وهي خلفه متعلِّقة بثيابه، ترجوه وتسأله المغفرة، ولكنه لا يستمع إليها .. حتى إذا ما اقترب من المدفأة صرخ في وجهها: كفى .. اصمتي .. أنا من بدأ هذا الجنون وأنا من سينهيه .. ثمَّ ألقاه وما لبث حتى رآها ملقاة على الأرض مغمىً عليها ..

ما إن استيقظت حتى سألت عنه غير آبهة بالتمثال الحي القابع أمامها: هاهو .. إنه بخير وبصحة .. أما أنت .. يا إلهي .. أتحبينه إلى هذه الدرجة .. إلى الدرجة التي لم أشعر بها بشوقك إليْ أو افتقادك لي طيلة مدة غيابك عن الوعي .. كنت لا تكفين عن الاتصال بي إن تأخرت عنك لدقائق، أما الآن فيبدو أنَّ دقائقي لم تعد مهمة كما كانت، فهناك من سرقها مني .. لا أصدق أني أغار من منديل .. أن منديلا لا يشعر ولا يحس يستطيع أخذك مني .. لقد كنت متأكدًا من حُبِّك لي، أما الآن فأنا لا أعلم دوري في حياتك .. هل لا أزال الحبيب المقرَّب أم أنا .. هو المهرج الكادح الذي ارتبطتِ به فقط .. كي يُسليك ويحرص على رضاك .. كيف هذا .. لا أعتقد أن من واجبي التفكير .. فهي مهزلة وقد سئمت دوري فيها .. ولذا .. فأنا مُنسحب وأردف بصوتٍ يائس يتخلّله شيء من الرجاء من الكبرياء والأمل: لم أقسُ

عليك يوما ولكني سأفعل اليوم .. عليك أن تختاري .. إما أن تتخلي عني أو تتخلي عنه .. نحن الثلاثة لا نستطيع أن نكون معًا ..

لن أستطيع تحمُّل هوسك السخيف أكثر ..

كما أني لن أستطيع الابتعاد عنك حتى ترفضيني ..

فإن كان هو ..

فقولي لا .. وسأبتعد بسلام ..

الباب المُحطَّم لا يزال مُحطمًا والهواء البارد يكتسح المكان .. الأضواء مشتعلة منذ أيام والتلفاز لم يزل يعمل منذ تلك اللحظة التي عاد فيها من المستشفى ثم استلقى على الأريكة ينتظر الجواب خائب الرجاء .. الدقائق كالساعات والساعات تبدو كالدهر يكاد ينتهي وتكاد حياته تنقضي فهي حَياته .. فهل ستعود؟

مدَّ يده نحو كوب العصير المتسمِّر بقربه .. تفاجأ حينما اختطفه أحدهم: ماذا تفعل .. ألم تر تلك الذبابة التي حطَّت فوقه ..

ــ بنبرة المصدوم .. بلهجة المتفاجئ: لقد عدتِ ..

ــ نعم .. وماذا كنت تظن غير ذلك ..

ــ لقد تخلَّيت عنه ..

ــ ألا يبدو ذلك واضحًا وهي تزيل بقايا الطعام ..

ــ استقام قاعدًا وأمسك معصمها قائلا: أنظري إليَّ وأجيبيني .. لِمَ تخليتِ عنه؟

ــ ابتسمت تنثر رذاذ الفرح من حوله حينما أجابته: لقد تخلَّيت عنه .. لأني .... لم أستطع التخلِّيَ عنك فتخلَّيت عنه ..

ــ دفعها إليه محتضنا إياها: لقد كدت أفقد الأمل مع مرور الوقت .. لقد طالت غيبتك ..

ــ لم يكن التخلي عنه أمرًا هيِّنا .. أعتذر ..

ــ نظر إليها مُردفا: هل أبدو لك بائسا ..

ــ لا ..

ــ إذن، فلم الاعتذار؟

هو .. لم يكن مجرد منديل بالنسبة لها ..

كما أنَّه لم يكن مجرد أيَّ رجل ..

إنَّه الرجل الذي أحبَّته أكثر من ذلك المنديل ولم تستطع التخلِّيَ عنه ..

إلا أنَّ تلك الأحداث لم تحدُث فعلا ..

فقد كانت حُلمًا استيقظ منه إثر صوت أحدهم يُناديه ويطرق زجاج نافذة سيارته .. لقد تحرَّك الزحام وهو الآن من بات مُعطلا للطريق .. اعتذر وانطلق سريعا إلا أنَّه لم يعد إلى المنزل بل توغَّل عميقًا إلى حيث

صاحبه .. طلب منه إهداء المنديل لأول شخص يلج دُكّانه .. واعدًا إيّاه أن يُعطيه التفاصيل لاحقًا .. غادر عائدًا ..

لقد كان للحُلم شوائبه التي ظلّت عالقة في ذهنه وأثارت مخاوفه ..

فمن طبع زوجته التَّعلق بأشيائها والمُبالغة في الاهتمام بها ..

ربما أن ما رآه نذيرٌ يُنذره ..

فلربما لن تتخلى عنه حقيقة كما فعلت بالحلم ..

فقط أنا

في اليوم التالي وقُبيل الظهر بقليل ولجت عجوز ذات حسٍّ راقٍ بصحبة عائلتها .. ما إن رأته – منديلي الذي كان متنعِّمًا فوق رفٍّ رخاميٍّ منحوتٍ مُحاط بالقطع الثمينة التي تجتذب الأنظار – حتى أحبَّته .. أومأ حبيبها المسن برأسه برضا قائلا: خذيه إن كنت تريدينه ..

ــ لا .. لا أريده .. يبدو من شكله إنه غالٍ ..

ــ لا بأس .. أستطيع شراءه ..

ــ لا تكن عنيدًا .. هيا لنبحث عن شيء آخر ..

ــ وعند الكاشير تفاجأت لمّا قدَّمه لها البائع كهدية، فلّما سألته أجابها بأنّه إهداء من المحل لأول شخص يلج .. شكرته ثمّ التفتت إلى زوجها .. ابتسمت له: هل تصدِّق ما جرى .. يبدو أنّ ذاك المنديل يحبني ..

ــ ومن لا يستطع ..

ــ إلى اللقاء ..

ــ آه .. إلى اللقاء سيدتي ..

لاحظت الجدة نظرات الاستغراب التي طغت على ملامح البائع أثناء رحيلهم فسألت حفيدَيْها .. أجابت طفلة في الخامسة أن أخاها الذي

يصغرها بسنة قد التهم طعام القطة كاملا ولم يترك لصغارها شيئا .. وبَّخته ثم عادت فاعتذرت من البائع وأرغمت حفيدها العنيد على الاعتذار أيضا وقبل أن تغادر منحته تعويضًا تمسح به آثار تلك النظرات التي تفاقمت لمّا أخبرته فهي لم تكن على علم بتلك الحادثة ..

لقد كانت أمسية ممتعة عاد الكل منها تعبًا، أمّا الجد فقد صعد إلى غرفته لحقت به الجدة بعد أن وضعت كلا صغيريْها في السرير .. لحقت به لتجده نائمًا على غير عادته .. لقد غفا سريعًا و هو الذي كان ينتظرها دائمًا .. لقد التمست له أسبابًا فغفرت له ..

وفي الصباح الباكر استيقظت، لم توقظه بل توجَّهت إلى حفيدَيْها فقد حان موعد الذهاب إلى المدرسة .. تركتهما وهبطت الدرجات نحو المطبخ لتعدّ لهما طعام الإفطار .. تفاجأت لمّا وجدته جالسًا على غير عادته فهو لا يتناول الإفطار إلا نادرًا وإن فعل فمتأخرًا ..

ــ لِمَ لمْ تلقيا التحية على جدَّيْكما؟

ــ الجد باسم ينتظر منهما إجابة: سألقي عليه التحية لاحقًا .. أما العنيد الصغير فلم يُجب ..

ــ حسنا .. هو غاضب منذ البارحة أمّا أنت فلم غضبك؟

ــ جدتي .. لست غاضبة ولأثبت لك ذلك سوف ألقي عليه التحية الآن .. وحالا صعدت إلى غرفة جدِّها ثم عادت: لقد فعلت .. وصل باص المدرسة فانطلقوا إليه مسرعين ..

ــ لماذا صعدت هذه الطفلة وعادت تقول أنها ألقت التحية عليك وأنت أمامها ..

ــ لماذا تحب حفيدتك شراء كل شيء غريب، ولماذا يحب أخوها التهامه؟

ــ لأنهما غريبان ..

ــ ويزدادان غرابة .. تعالي عزيزتي واجلسي بقربي ولنتناول الإفطار معًا .. من الآن فصاعدًا لن أتخلَّف عن تناول الطعام بصحبتك يومًا ..

افترق الاثنان .. هو إلى مرآبه لينهي بعض الأعمال العالقة أما هي فقد بدأت كما اعتادت يوميا حمل مهام هذا المنزل المتواضع على عاتقها .. من تنظيف وترتيب وتلميع حتى إذا ما انتهت اختلست النظر إلى زوجها الذي كان يعمل بجد، تركته وإلى المطبخ توجَّهت .. كانت هناك منهمكة تُعدُّ الغداء وتحاول الانتهاء قبل عودتهم من المدرسة، حينما أحسَّت به يعانقها من الخلف ويقبِّلها على وجنتها: مالذي تعدينه اليوم؟

ــ آه لقد فاجأتني .. ليس من عادتك فِعل ذلك ..

ــ بلهجة لطيفة: هل أتوقف؟ هل يزعجك ذلك؟ أخبريني ولن أعيد الكرة ..

ــ حاول الابتعاد فشدَّت على ساعديه: غداء اليوم هو دجاج بالليمون .. سلطة خضراء وكحساء فقد اخترت البروكلي مع بعض الإضافات ..

ــ ولكنك لا تطيقين البروكلي .. وأعلم أنك ترغمين نفسك على تناوله لأجلي ..

ــ كيف علمت؟

ــ لست جاهلا، ولكني أدَّعي الجهل في بعض الأحيان ..

ــ وأنا التي كنت أظن بأني ممثلة بارعة .. يبدو أني قد فشِلت ..

ــ اصنعي حساء الفاصولياء لهذا اليوم ..

ــ ولكنك ..

ــ ولكني ماذا .. ألا أستطيع أن أفعل لأجلك ما تستطيعين فِعله لأجلي .. قال تلك الكلمات وهو يتأمل احمرار وجنتيها ونظرات الفتاة التي عَشِقَتْهُ أوَّل ما رأته .. لم يستطع شبح العمر بخطوطه الدقيقة باندفاعه المُتخايل أن يحجب ذلك البريق أو أن يقف في وجه روح الشباب التي عادت فاكتسحتها .. تشعر الآن وهي بين يديه أنها تلك الصبية الخجلة التي تقدَّم لخطبتها جندي عاد للتوِّ من الحرب وقد تقلَّد العديد من الأوسمة ..

علمت أن رجلا مثله سيمنحها الاحترام ستعيش في ظلِّه بأمان .. إلا أنَّ رجلا مثله لن يتمكّن يومًا من تسلُّق شجرتها كي يقطف أحلامها .. من الصعب عليه جدًّا أن يتحوَّل من عسكري يلقي الأوامر إلى مغرم ينثر حولها مشاعره متى أمرت .. بمجرد إحساسه بذلك .. ومع هذا فهي لم تستطع الرفض .. لم تستطع قول لا .. ها هي الآن تقف مذهولة أمام تلك الكلمات وهو يدنو منها ليطبع قبلة دافئة قريبًا من شفتيها وما كاد حتى طرق الباب أحدهم .. تركها لتفتحه .. لقد كان أحد زبائنه يسأل عنه .. عادت إليه فلم تجده: بماذا أستطيع خدمتك؟

ــ لقد أوصيته على كرسي هزاز، وقد طلب مني العودة بعد أسبوع .. فهل انتهى منه ..

ــ آه .. إذن هو أنت صاحب الكرسي الهزاز .. نعم لقد انتهى منه منذ قليل .. إنه في المرآب .. الحق بي .. وهناك تفاجأت .. إذ لم تجده مُكتملا .. كيف وقد رأت بأم عينيها ذلك .. جعلت تناديه .. بحثت طويلا دونما فائدة .. اعتذرت من السائل وطلبت منه العودة بعد أيام .. استكملت بحثها لتجده جالسًا أمام التلفاز المفتوح على غير عادته مُنهمكًا كالعادة يقرأ الجرائد .. لم تشأ إزعاجه آثرت تركه على أن تسأله لاحقا ..

كان الغداء قد تأجَّل حتى موعد عودة الصغيرين من نشاطهم المدرسي الذي عرقلهم عن المجيء باكرًا .. أُعدَّت المائدة وجلس الجميع .. تناول الجد طعامه ثمَّ غادر نحو غرفة الجلوس .. أخذ الصغيران يثرثران ويتطلان هربًا من تناول الحساء فشجَّعتهم أن يفعلوا كما فعل جدُّهم فقد أنهى طبقه كاملا .. استغربت لمّا وجدت الحساء على حاله لم ينقص منه شيء هذا ما أشار إليه أحدهم .. كانت الساعة قد اقتربت من السادسة حينما أتت إليه تسأله:

عزيزي .. هل تناولت الحساء .. أم أني متوهمة؟

ــ تناول يدها قائلا: دعيكِ من الحساء وتعالي هنا .. وبلطف جذبها إليه.. جعلها تستدير حول الأريكة ثمَّ أرخاها في حضنه مُردفًا بعد صمتٍ للحظات افترش لحديثهما أرضًا جديدة:

- ماذا تفعل؟

ــ أفعل ما كان يجب عليَّ فعله منذ مدة طويلة .. أن أعاملك كما تحبين .. ألا أتجاهل مشاعرك وأحاسيسك بعد الآن ..

ــ ولكني أحببتك كما أنت ..

ــ لقد كنت آلة عسكرية تلقي الأوامر وقودها الطاعة والانصياع .. عَلِمْتُ بأنَّك لست كذلك ومع هذا تجاهلتك .. ولكن ليس بعد الآن .. أريدك أن تحبيني أكثر .. أن أكون كما تحبين ..

ــ لا أعلم ماذا أقول ..

ــ أجاب مُداعبًا خصلات شعرها البيضاء: لا شيء .. دعي كُلَّ الحديث لي فلدي الكثير لأقول ..

استيقظت قبيل التاسعة لتجده واقفا أمام الشرفة وقد بدا وكأَّن ضوء الشمس اخترقه .. نادته باسمه فالتفت إليها .. خطا نحوها بنظراته تلك التي جعلتها ترتبك، سألته: لِمَ لم توقظني؟

ــ انحنى ناحيتها وجيوبه تكتنف راحتيه أجاب: لماذا .. ألا يحق لك بيوم إجازة؟

ــ هل هو الخميس؟

ــ باسما وهو ينظر إلى نحرها المكشوف: نعم .. سرعان ما تداركت أمرها فاعتدلت جالسة تستر ما كان للتَّو قد كُشف منها: لم فعلتِ ذلك؟ ألستُ زوجكِ؟ ألا يحق لي رؤية شيء من مفاتنك؟

ــ مستغربة: ولكنك لا تحب رؤيتي هكذا ..

ــ وماذا عنكِ .. ماذا تحبين؟

ــ لا بأس فأنا أحب ما يُرضيك ..

ــ تلك لم تكن إجابة على سؤالي الذي سألت .. ماذا عنكِ .. ماذا تحبين؟

ــ .....

ــ هيا .. لا تخجلي وأجيبيني ..

ــ كُنت أحب ..

ــ امم ..

ــ كُنت أحبُّ .. عندما نكون معًا .. أن أكون أقلَّ احتشامًا .. أن أُظهر لك شيئًا من مفاتني .. فأغريك .. فتُقبلَ عَلَيْ، وأجعل لسانك ينطق بكلمات لطالما رغِبت بسماعها .. ولكنَّ ذاك كان في الماضي وقد ولّى زمان وأتى آخر لا حاجة لنا فيه للادعاء .. نهضت ثم ابتعدت عنه متكدِّرة وبخاطر مكسور

ــ لا تكوني شقية .. توقفت .. استدارت وإذْ به يدنو منها: ولِمَ عليك الادعاء وهو يعيد فتح الأزرار التي زُمَّت: لو أنَّكِ نظرت جيدًا في عيْنيْ .. مُسدلا شعرها الذي تراخى جزءٌ منه على وجهها الذي أزهر: لوجدت أنَّك لازلت كما كُنتِ تلك الفتاة التي عَرفت مذ أربعين سنة .. لم تتغير، بل ازدادت جمالا .. ثمَّ كانت .. تلك لحظة شهدتها ..

أشعة الشمس التي اخترقت ..

وأركان الغرفة التي تباعدت ..

ودقات الساعة التي تراجعت ..

نحو تلك البقعة حيث كانا يقفان معًا ..

عاد ذاك الأريج بينما ظلَّ زمانٌ معطَّلٌ ينتظر تلك اللحظة أن تنتهي ..

هي لحظة جاشت معها المشاعر ..

ما كان لها أن تنتهي لولا ..

صراخٌ جعلها تنحسر ..

شقيَّان يجولان .. يعمّان المنزل فسادا ..

لشيء تافه كالعادة ..

افترقا .. حتى إذا استتب الوضع رنَّ جرس الباب .. تفاجأت عندما حاولت تعديل نفسها أنَّ شعرها لم ينسدل وأنَّ نحرها لم ينكشف .. أسئلة لم تجد مداها في مساحة الوقت الذي لم يكن مَهيَّأً للبحث عن إجابات لها، فالجرس لم يصمت بل ظلَّ في إلحاح حتى فُتح الباب:

أين أخي؟

ــ ماذا تفعل هنا؟ ألم أخبرك بالأمس أن تنتظر قليلا، فهو لا يزال غاضبا منك ..

ــ يا امرأة لقد تشاجرنا لسبب تافه لا يحتاج منه كُلَّ هذا الغضب .. إنه حتى لا يجيب على رسائلي ولا يرد على اتصالاتي ..

ــ أعلم أن تلك ليست عادته .. حتى أنا أشعر بأنه بات غريبًا هذه الأيام .. أم هي أنا .. لا أعلم .. ولكن أمهله بعض الوقت ..

ــ ماذا؟

ــ هدئ من روعك .. إلا أنّه دفع الباب ودخل باحثًا عنه، سأل الصغير الذي لحق به فأخبره .. توجَّه إلى غرفته ليجده نائما .. وقف عند الباب .. التقطت الجدة أنفاسها قالت: ما بك ..

ــ إنه نائم ..

ــ في مثل هذا الوقت .. لقد تغيَّر كثيرًا هذا الرجل؟

ــ سأوقظه ..

ــ تعلم بأنه سيغضب .. انتظر أو لا تفعل ..

ــ والصغير يستمع إليهما بإنصات حتى تحدَّث برجاء: عمي أرجوك .. أيقظ جدي .. أريده في مسألة خاصة ..

ــ ولم لا توقظه أنت ..

ــ إني أحاول ذلك منذ يومين ولكن دون فائدة ..

ــ منذ يومين ثم اقترب منه ..أيقظه .. تفحَّصه .. التفت إليها: إنه ميت ..

ــ شخصت عيناها واختلج نابضها: لا أصدق .. لقد كنّا معًا منذ قليل ..

ــ هزَّ كيانها بالحقيقة المُرة التي أيقظتها من سباتها القصير .. صرخ في وجهها بدموعه التي لم تُطفىء أنين كلماته: استيقظي .. هو ميت منذ يومين وأنت تقولين أنكما كنتما معًا منذ قليل .. إما أن تكوني متوهمة أو أنَّك مجنونة .. ولكن في كلا الحالتين سوف أعود لإخراجه من هذا السجن، فحذار أن تأخذيه بعيدًا وإلا ..

ــ غادر هُوَ، بينما ظلَّت هِيَ واقفة واجمة تتذكّر كلَّ ما كان بالأمس القريب ..

نظرات البائع .. أوقات نومه التي تغيَّرت .. طباعه التي لم تكن في الأصل موجودة .. طعامه الذي لم يُمس وتلك اللحظات التي لم يكن حاضرًا في أيٍّ منها ..

وأخيرا .. ذلك الصباح حينما استيقظت لتجد أن الحياة قد غادرته وفي تلك اللحظة بالذات ..

سمحت للوهم أن يتغلغل ..

وللحقيقة المُرة أن تنجرف بعيدًا ..

الإجابات الغائبة قد وجدت لها مكانًا مُريحا بجانب الأسئلة التي لطالما تقاذفت ..

والقطرات النديَّة حُبست طويلا، هاهي تبدأ في الهطول ومن حيث النقطة حيث توقَّفت، وما كادت حتى شدَّها صوت من خلفها: عزيزتي .. ماذا بك؟

ــ لم تلتفت إليه وخاطبته بجدية تُرغم نفسها على وضع نهاية للحُلم الذي بات مستحيلا:

توقَّف .. ارحل ..

ــ ولكن لِمَ ترغبين في رحيلي؟

ــ .....

ــ أجيبيني لِمَ؟

ــ لأني ..... أريدك أن ترحل .. أن ترقد بسلام .. أن أبكي عليك كما ينبغي ..

ــ أمسك يدها: انظري إليْ .. انظري إليْ .. وبرجاء مُشْفِق: ولكني لا أريد أن أرحل .. أريد أن أبقى هكذا .. الرجل الذي لطالما حلمت به .. أرجوك لا تسأليني الرحيل فأنا أخشى إن رحلت ألا أراكِ مُجدَّدًا ..

ــ ألا ترى .. أنا فقط من تراك .. من تسمعك .. من تشعر بك .. أحب ذلك وأحب الرجل الذي أنت، ولكن ذلك يعني بأني سأتوه .. أنا بالفعل تائهة .. لا تفعل بي ذلك .. فلن أستطيع تحمُّل المزيد .. ثمَّ أجهشت بالبكاء ..

ــ ناداها .. فرجَته أن يرحل .. هنا تركها تبكي قليلا ثمَّ ضمَّها إليه قائلا: أتعديني إن رحلت بأني سأبقى حيًّا في ذاكرتك .. وبأن الوقت لن يسلبني منك؟

ــ فهزَّت رأسها ..

ــ حسنًا إذن وبابتسامة حلوة: الوداع ..

فلمّا اختفى .. شعرت بالخوف .. فجعلت تتلفَّت يمنة وشمالا .. تبحث عنه .. ولكنها لم تجده .. بل وجدت مكانه ..جثة هامدة تفوح منها رائحة الموت .. أرهقها ما رأت .. جهد الأيام هاهو يحطُّ ثقيلا فوق كاهلها .. جلست بجانبه .. رغبت في استدعائه ولربما تردّد لسانها في نطق اسمه .. غير أَنها .. فضَّلت أن يتوقف الأمر عند هذا الحد .. ألا تكون كالتيار يدور في دائرة مغلقة ..

فضَّلت .. البقاء على العهد .. والتمسُّك بالوعد والاكتفاء بالوداع ..

دخلت الصغيرة تستأذنها لأخذ منديلها فضمَّتها إلى صدرها بقوة تُفرغ في جسدها الضئيل شُحنات الحزن التي فاضت واستفاضت دون أدنى مقاومة منها ..

أن لا أتذكرك ..

وأن أنتظر اليوم الذي ألقاك فيه ..

لا تقلق ..

فذلك لن يكون ..

كما أنَّه لن يطول ..

إنها مسألة وقت ليس إلا ..

كما أنَّه .. أنا ..

فقط أنا ..

من عليه أن ينتظر .. فانتظرني ..

صراع مع الذكريات

استعارت الصغيرة المنديل من جدتها وخرجت تتباهى به كما هي حال كُلُّ صويحباتها من البيوت المجاورة .. إلا أنَّ الرياح برعونتها نفضت البساط بما فيه .. أكوابهم الملونة .. الكعك الذي هو من صنع أيديهم ومناديلُهم التي حلَّقت عاليا .. ارتفع منديلي الغالي نحو السماء التي انتهزت الفرصة وقدّمت له دعوة لزيارتها إلا أنَّ شجرة غنّاء عامرة كانت الأسبق .. اجتذبنه إليها تنصحه:

ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع ..

فدعك من السماء وتهادَ فوق أغصاني ..

دع القمر يناغيك بلطفه ..

والشمس تداعبك دون أن تؤذيك ..

مرَّ اليوم الأول بسلام تبعه الثاني والثالث حتى إذا ما خاطب الليل النهار يستأذنه بنقل متاعه نحو العالم الآخر أن يسمح لسُنَنِه أن تلج و لقانونه أن يُرام .. تسلَّقت قطة أعلى القمة وجعلت تموء حتى الصباح .. مواءٌ أزعج الجيران وشدَّ انتباه المّارة مما استدعى حضور رجال الإطفاء .. صعد أوسمهم وأعدلهم طولا .. لم تمنحه المشاكسة فرصة .. قفزت فوق

رأسه ثمَّ تشبَّثت بثيابه .. وفي طريق عودته لمح المنديل فعزم بسببه العودة إليه .. أوصل القطة بأمان وحالا إليه .. التقطه وكاد أن يقع بسببه لولا أنَّه تماسك .. ولّما لم يجد صاحبًا له .. قرَّر إهداءه لزوجته.

مرَّ الشتاء ثقيلا وأتى الربيع بخفَّته المعهودة وبجماله الأخّاذ .. كانت مُنهمكة في تزيين المائدة عندما رنَّ جرس الهاتف وما من مجيب .. رنَّ مُجدَّدًا لتُجيب:

ــ نعم أنا هي ..

ــ لقد استيقظ ..

شخصت عيناها .. والتجمت شفتاها .. لحظات ثمَّ التفتت إلى زوجها: لقد استيقظ ..

تركت السماعة والخط مفتوحًا .. التقطت مفاتيح سيارتها وانطلقت نحو الجانب الآخر من البلدة وزوجها خلفها .. تبعها بعد أن ملَّ من مناداتها ومحاولة إيقافها .. سألت الممرضة عن مكانه فدلَّتها عليه .. كان حينها يرمق السقف لّما نادته فنظر إليها .. لم يكن فرحًا .. لم يتفاجأ حتّى ودموعها التي تناثرت لم تبدِّل كيانه: لقد استغرقتَ وقتًا طويلا حتى استيقظت .. لقد فقدت الأمل .. خِلتُ بأنَّك استسلمت فاستسلمت .. نعم.. أعلم .. كان عليّ أن أنتظر أكثر .. أن أقاوم أكثر كما فعلت .. أعتذر ..

ــ بل أنا من عليه الاعتذار سيدتي .. فأنا لست من تعتقدين، ربما أنّك أخطأت الغرفة ..

ــ أصابها الجمود لثوانٍ ثمَّ أردفت مبتسمة: آه .. أنت غاضب مني لأن زياراتي قلَّت في الآونة الأخيرة .. أعتذر عن هذا أيضًا ولكن صدقني فأنا لم أتخلف عن زيارتك يومًا حتى .. حتى .. بخجلٍ شديد: تراكمت المشاغل عليْ ..

ــ الزوج الآخر: ماذا تفعلين هنا؟

ــ إليه تشير إليه بفرحة عَلت محيّاها: انظر .. لقد استيقظ ..

ــ لم يعبَأ بها وتوجّه إليه غاضبًا قائلا: تلك المرأة لم تعد زوجتك، هي زوجتي الآن وهؤلاء هم أطفالنا ولذا .. أنصحك بالابتعاد عنها وابحث لك عن حياة أخرى ..

ــ عَلت نبرة صوتها قليلا: ماذا تفعل .. لِمَ صُراخك؟

ــ لم صُراخي؟ لقد تركتني وانطلقت خلفه ما إن استيقظ .. إن كنت لا تزالين على عهدك به فلم قبِلت بي .. هل أبدو لك مغفلا؟

ــ ارتفع الهرج والمرج بينهما ممّا استدعى حضور الدكتور الذي أتى بصحبة عدد من الممرضات .. كانت الصدمة كبيرة والصفعة مؤلمة .. قاسية

حينما علمت بأنَّ زوجها السابق الذي ظلَّ حبيسًا لغيبوبةٍ نافت[1] العشر سنين ببضع سنين قد فقد ذاكرته وأمله ضئيل جدًّا في استرجاعها .. سقطت أرضًا مغشيًّا عليها فلمّا أفاقت وقد كان بقربها .. احتضنت يده قائلة:

علينا أن ننفصل ..

ــ هه ..

ــ نعم .. ألا تذكر .. كان هذا هو شرطي الوحيد للزواج بك .. أن ننفصل متى استيقظ ..

عادوا جميعًا إلى المنزل بعد أن طلب منهم الدكتور منح المريض متَّسعا من الراحة .. هي الراحة التي لم تجد مُتَّكأً لها وسط ذلك العش الهادئ .. فحروب طاحنة اشتعلت كُلٌّ يتَّهم الآخر بالكذب وينسب إليه أشنع التهم وأسوؤها .. هي حرب لم تنته حتى أتى بكرهما يحمل أخاه الذي كان يبكي ولّما لم يستمعا إلى نداءاته بكى هو الآخر حينها توقفوا .. أغلقت الباب خلفها تاركة إيّاه يرعى الصغيريْن .. غير أن أصغرهما سنّا لم يتوقف فهو بحاجة إلى الغذاء ممّا اضطره للدوْس على كبريائه وطرق بابها .. رجاها حتى فتحته .. أخذته ثمَّ عادت فأغلقت الباب خلفها .. خرج وبعد منتصف

---

(١) نافت: علت

الليل بساعة عاد .. بدَّل ملابسه وما كاد يستلقي بقربها حتى همَّت بالمغادرة .. منعها .. حمل وسادته .. لحافه وغادر وقبل أن يفعل قال مُدافعًا عن نفسه مُحاولا ثنيها: أنا لم أخدعك كما أنّني لم أنس اتفاقنا إلا أنّه شرط من المُحال حدوثه أو تقبُّله .. عندما رضيت بشرطك حينها كان همي الوحيد هو .. الارتباط بك مُتناسيًا أمر المستقبل وما سيحمله موهمًا نفسي مُقنعًا إيّاها أنّك قد تتغيَّرين .. ولكن من الواضح جدًّا بأنّ ذلك لم يحدث ومع هذا .. فلن أقبل بالانفصال .. فإن لم تكوني بحاجة إليْ .. فأنا بحاجة إليك .. أبناؤك بحاجة إليك .. ذكرياتنا وما ممرنا به من لحظات .. حياة بأكملها مضت .. لا يُعقل أن ترمي بكلِّ ذلك خلفك فقط لتلبي حاجات قلبك .. تلك قسوة منك وأنتِ .. لستِ قاسية ..

ولّما لم تُجبه .. تركها بعد أن أطفأ النور.

ما إن أشرقت شمس اليوم التالي وغادر بمعدة خاوية إلى عمله حتى استيقظت، لم تكن بَعْدُ قد غفت من ليلة لم يرقأ لها جفنٌ فيها، فقد صال التفكير فيها وجال يبحث في حال الحبيب الذي لا يتذكَّر وجهًا كان يجلب له السعادة ولا يُميِّز صوتا لابُدَّ أن يسمع تحيَّته صُبح مساء .. أوصلت صغيرها إلى المدرسة بينما توجَّهت ورضيعها إلى المستشفى .. بضيق استقبلها: سيدتي ماذا تفعلين هنا ؟ إن كنت قد قدِمت للاعتذار فاعتذارك

مقبول .. رجاءً ارحلي .. جلست بقربه فأسرع بالنهوض .. أمسكت يده: انتظر لحظة .. وفتحت صندوقا أحضرته يزخر بالذكريات ..

ألبوم الصور الذي يحكي الحكاية منذ البداية مذ كانا معًا في ملجأ للأيتام حتى اللحظة التي سبقت ذلك الحادث المُرَوِّع والذي لم ينجُ منه إلا إيّاها .. تحدَّثت عن كلِّ ذكرى وكأنّها قد حدثت بالأمس .. تحدَّثت وهي تنظر إليه تراقب ارتداد ناظريه واختلاج جفنيْه .. إلا أنّه لم يمنحها في النهاية مُرادها فقد أنكر معرفته لأيٍّ منها .. صمتت لفترة طويلة: سيدتي طفلك يبكي .. نهضت .. حملته ثمَّ غادرت: سيدتي .. الصندوق ..

ــ لم يعد له أي معنى .. افعل به ما تشاء .. لم ينتظر هو الآخر أكثر .. رماه في سلة المهملات ..

استمر صمتها اليوم بطوله، خادنه شرود .. لا مبالاة .. ونزعة إلى الوحدة لا همَّ لها سوى نبش الماضي والوقوف على أطلاله .. شواهد الحُبِّ التي كانت تتدافع لالتقاط ذكرى تبقى في الأذهان هاهي تنسحب تدريجيا دون أن تلتفت إلى الوراء فطعنات اللوم التي كانت تتلقّاها جعلتها ترتمي في أحضان النسيان .. حالها هكذا لم تتغير، بل ازدادت سوءًا .. انقطعت عن العمل، أما المنزل فالفوضى تعمُّه، فمن كان يدير دفَّة المكان لا يبدو أنَّه سيجد منفذًا له من بين كُلِّ تلك الغيوم السوداء التي اكتظت حوله تكتمُ

أنفاسه وتحجبُ الرؤية من أمامه .. قد صنعت لها من ذكرياتها سجنًا ومن ظلِّها سجّانًا ومن الرفات المتراكم قُفلا أوصدت به الباب على نفسها مما استدعى تدخُّله، فهو لا يستطيع رؤيتها تذوي وهو لا يُحرِّك ساكنا، لا مجال هنا للاعتزاز بالكرامة أو التحلي بالكبرياء، فهو الآخر يذوي في كلِّ لحظة ومع كلِّ آه تتأوَّه بها .. طرق الباب فلم تفتحه .. إنه يومها الثاني وهي حبيسة غرفتها .. لم يتحمَّل أكثر فحطَّم الباب .. لقد كانت حالتها مزرية تبدو كمن رحل عن العالم وروحه مُعلَّقة بين الأرض والسماء .. أسرع إليها تفقَّدها .. قلبها ينبض ولكنها ليست هنا .. هزَّها بكلماته العاصفة: أيتها المجنونة .. أيفعل الحُبُّ بك هكذا .. لقد حوَّلتِ ذلك المفهوم الوديع إلى وحش مريع التهمك ولم يُبقِ منك إلا نظراتك الشاردة ..

ـــ .....

ـــ إنه لا يتذكرك وإن كان يوما قد أحبَّك، فقد دُفن ذلك الحُب في غيابات عقله الباطن .. عليك أن تتقبلي حقيقة أن تلك الفترة من حياته مُحيت .. عليك منحه فرصة لبدء حياة جديدة ..

ـــ .....

ـــ أعلم بأنّك تلومين نفسك .. "لقد استعْجلت .. قد خُنتُه ولم أَكُن وفيّة له" .. إلا أنّه العكس تمامًا، لقد انتظرتِه طويلا .. طويلا كفاية كي

تنهضي مُجدَّدًا إلا أنَّه بالرغم من كُلِّ ذلك وحتى اللحظة التي أنا بها هنا أمامك أراكِ، فأرى أنَّك لا تزالين مُخلصةً لتلك المشاعر حتى الآن، لا بأس في ذلك إلا أنّه في بعض الأحيان، علينا أن نستسلم للمنطق الذي يرغمنا على تقبُّل الواقع وأن نمضي في طريقنا دون أن نشعر بالندم أو الملامة ..

ـــ .....

ـــ عزيزتي .. هل تستمعين إليْ؟

ـــ .....

ـــ مُكتنفًا براحتيْه وجنتيْها: انظري إليْ .. تحدثي إليْ .. قولي شيئًا .. سأستمع إليك وسأفعل أيَّ شيء تريدينه ..

ـــ .....

ـــ عزيزتي .. أرجوكِ قولي شيئًا أرجوك ..

ـــ .....

ـــ التفتت إليه بنظراتها الواهية .. غرزت السكين ذاتها في قلبه مُجدَّدًا قائلة: علينا أن ننفصل ..

نطقت بتلك الكلمة، انطلقت بعدها تبحث عنه: لقد غادر المستشفى وعاد إلى منزله –بيت شاطئ منعزل– منذ قليل .. لحقت به .. ولجت خلفه

بدقائق .. كان حينها يقلِّب صفحات المجلات المتراكمة فوق أرضية صالة الاستقبال حينما شعر بوجودها: ماذا تفعلين هنا؟

ــ لم تُنصت لـه وبادرت قائلة: إنها مجلتك المفضلة .. مذ وقع الحادث وأنا آتي إلى هنا شهريًا لالتقاطها لتنظيف المكان وللمحافظة على جوهره ولاستعادة بعض الذكريات حتى بعد أن تزوجت كنت آتي إلى هنا خلسة .. لم أستطع الابتعاد خصوصا وأنّه المكان الذي جمعنا معًا ..

ــ توجَّه إلى الباب وأمرها بالخروج .. رفضت: هل يعلم زوجك بأمر قدومك إلى هنا؟

ــ لقد انفصلنا ..

ــ بسببي أنا؟

ــ .....

ــ يا إلهي .. ماذا دهاكِ؟ أتدمرين حياتك بسبب رجل لا صلة بينك وبينه إلا الماضي .. ذلك الماضي الذي لم يعد يتعرف عليه .. غريب بالنسبة إليه .. يا امرأة .. استمعي إليَّ جيِّدًا .. لقد كنت زوجتي يومًا لن أُنكر هذا، إلا أنّك الآن .. شخص آخر لا أعرفه البتة ولم ألتقِ به يومًا وعليه .. امضي في حياتك ودعيني أمضي أنا أيضا ..

ــ لا أستطيع .. ذلك مُحال ..

ــ بل المُحال ما تصنعينه الآن .. تخسرين زوجًا يحبك وأطفالا مُتعلقين بك من أجل ماذا .. من أجل رجل استيقظ من عالم الأموات وصفحة ذكرياته بيضاء .. من أجل الأيام الخوالي، ارحلي أرجوك ..

ــ أنت تتذكرني ولكنك تقاوم تلك الذكريات .. توقف ودعها تطفو ..

ــ بحنق يتدفق عكَّر صفوه: عن أي مقاومة تتحدثين .. لا شيء هناك لأقاومه .. أنا الآن لست سوى غريب يحاول التعرَّف على العالم من حوله والتآلف مع وضعه الجديد ..

ــ أنت حتى لم تحاول ..

ــ إن حاولتُ يومًا وتذكَّرت فلن أخبرك .. أتعلمين لِمَ؟ .. أنانيٌّ هو من يطلب منك الانتظار وقد انتظرتِه كفاية .. من يبني حياته على سعادة الآخرين .. إن كنت الرجل الذي أحببته يومًا، فلن ألومك وسأغفر لك وسأشعر بالسعادة لأجلك .. ولذا أرجوك .. ألقي عن كاهلك هذا الحمل الثقيل ولا تكلِّفي نفسك فوق طاقتها .. ظلَّت واجمة صامتة لفترة: سيدتي هلا رحلت الآن؟ فلم تجبه: حسنا إذن .. إن لم تخرجي أنتِ سأخرج أنا ..

ــ انتظر .. امنحني عشر دقائق فقط وبعدها سأرحل ..

جعلت تطوف به - بكرسيِّه المتحرك - أرجاء المكان وفي كل بقعة كانت تحمل ذكرى لم تتوانَ عن ذكرها، ولكن لا فائدة، لايبدو أنه يتذكَّر شيئًا حتى نفذا إلى غرفة نومهما .. تراجع قليلا: دقيقتان فقط وبعدها سأرحل .. جلست على السرير .. أسدلت ظفيرتها من ثُمَّ طلبت منه أن يداعب خصلات شعرها الناعم الكث الكستنائي اللون، فقد كان ذلك أحبَّ الأفعال إلى قلبه: لِمَ فعلتِ ذلك؟

ــ لأني .... لأني نادمة .. لأني لا أستطيع نسيانك أو الافتراق عنك .. لأني بحاجة إليك ..

ــ بأسفٍ جَلِيٍّ وإشفاقٍ واضح: ولكني .. لستُ بحاجة إليك .. ألقى على مسمعها تلك الكلمات القاسية ثم تركها ورحل .. لّما خرج وجد زوجها مُستندًا بظهره قرب الباب الخارجي مُنتظرًا: لم يحدث شيء .. خذها رجاءً وارحل من هنا .. سأعود بعد قليل ..

ــ ولكنها لن تكفَّ عن ملاحقتك ..

ــ ستفعل الآن ..

ــ كانت تبكي حينما جلس بقربها: هو لم يعد بحاجة إليْ ..

ــ تنهَّد طويلا ثُمَّ: نحن بحاجة إليك .. صمت لهنيهة أردف بعدها: وأنا خاصة .. بحاجة ماسة إليك ..

مرَّت الأيام .. وفي ذات مساء وبينما كانت العائلة في نزهة قريبًا من البحر صادف أن مرَّ بجانبها .. لم ينتبه لها، غير أنها لم تستطع أن يمُرَّ بجانبها دون أن تشعر به .. نادته بأحَبِّ الأسماء إلى قلبه فالتفت إليها .. ابتسمت له ثُمَّ صدَّت عنه: إنه يتذكرني ..

ــ ماذا؟

ــ إنه فقط لم يشأ أن يدمِّر حياتي .. كانت لي شكوكي وقد تأكدَّت الآن

ــ وكيف علمت بذلك؟

ــ أتريد حقًّا أن تعلم؟

ــ نعم ..

ــ سأخبرك في وقت لاحق ..

" إنّه الرجل الذي أحببت " تلك هي الإجابة التي خبَّأتها مراعاة لمشاعره ..

عَلِمَ بأنّها عَلِمَت ..

توقَّف صراعه مع الذكريات ..

فابتسامتها جلبت له الرضا ..

فكيف له أن ينسى وجهًا .. يجلب له السعادة ..

ولا يُميِّز صوتًا .. لابُد أن يسمع تحيَّته صُبح مساء ..

العاشق الصغير

أُستدعيَ الآباء لحضور اجتماعٍ للوقوف على مستوى أبنائهم التعليمي ومدى تطورهم ولأخذ بعض النصائح ..

ــ شابة في الرابعة والعشرين من عمرها، ذات جمالٍ أخّاذٍ وشخصيةٍ جذّابة، ذات إطلالة شفافة تجعلها مُحَبَّبة إلى قلب كُلِّ من يراها، فما بالكم بالصغار الذين تتلمذوا على يديْها ونالوا قسطًا من وقتها .. أحد الأمهات تستفهم منها قائلة: أحقًّا أنت راحلة غدًا؟

ــ نعم هذا صحيح ..

ــ ولكن إلى أين سترحلين؟

ــ لم أقرَّر بعد إن كنت سأتوقف أم سأتابع العمل، فحالتي الصحية ليست مُستقرة .. فأنا أصاب بالإرهاق من وقت لآخر ممّا يضطرني إلى التغيُّب معظم الوقت .. إنّه العمل الذي أحب وغيابي عنه يصيبني بالإحباط .. لقد كان التعامل مع الأطفال حلمي، ولكن على حلمي أن ينتظر قليلا قبل أن يكتمل ..

ــ نعم فصحتك هي الأهم .. أعلم أنه لا يجوز لي قول ذلك، ولكن تلميذك طفلي الصغير رجاني بشدة أن أطلب منك ألا ترحلي وإن أصررتِ فإنه لن يذهب إلى النزهة غدًا ..

ــ آه .. كم أحُب هذا الفتى .. فُراقه صعب، ولكن الأصعب هو عدم توديعهم .. لم أشأ الكذب عليهم، ولم أستطع المراوغة حتى مع أطفال بسنِّهم، فقلت ما قلت لأندم .. انسكبت دموعهم لتنسكب دموعي بعدها

ــ لا تبكي رجاءً .. سوف يمضي الوقت وسوف ينسوْن ..

ــ نعم .. الوقت كفيلٌ بذلك .. سُعدت بلقائك .. نهضت ومن بعيد نادتها: سيدتي أخبريه .. إن لم يحضر غدًا فسوف أحزن ..

عادت إلى المنزل قُبيل الظهر تفاجأت عندما فُتح الباب من تلقاء نفسه .. لقد كان خلفه .. ينتظرها بفارغ الصبر .. نقلت لـه ردَّها .. قطَّب حاجبيه مزَّ شفتيه حابسًا دمعه .. اكتنفت براحتيها ساعديه: لا تتصرف كرجل كبير .. ابك وسوف ترتاح ..

ــ فلتحزن ..

ــ ماذا ..

ــ لن أذهب غدًا، فلتحزن كما سأحزن أنا، ثمَّ نفض راحتيها وأسرع إلى غرفته يزفر أنفاسه الغاضبة: لا تكن قاسيًا فلديها أسبابها ..

ـــ أنا أيضًا ..

لم يتناول غداءه وظلَّ صائمًا النهار بطوله مُلتحفًا فوق سريره .. غرفته مظلمة ولا يبدو أنّه سيخرج منها ..حاول والده التدخُّل فمنعته .. أتت تحمل شطيرة .. جلست بقربه فصدَّ عنها: أمي .. لا داعي لقلقك .. أنا رجل كبير الآن وأستطيع تدبُّر أموري ..

ـــ حقيقة أنّك في السابعة من عمرك غير أنّك في نظري أكبر من ذلك بكثير .. أنا أثق بقراراتك وأعلم بأنك ستتناول شطيرتك ولن تدعني أحزن أنا أيضا ..

ـــ تناول شطيرته .. نظَّف أسنانه ثمَّ عاد إلى سريره .. قبَّلته، وقبل أن تُغلق الباب ناداها: أمي .. أنت امرأة أقرب إلى ذوق النساء .. هل لديك هدية مناسبة أقدِّمها غدًا؟

ـــ ابتسمت: حسنًا، سأفكر وسأهديك إيّاها غدًا .. تصبح على خير .. تركته وفي الطريق نحو الأسفل خطر ببالها أن تُعطيه المنديل ليُهديه كهدية .. أسرعت تبحث عنه وتعدُّه للغد.

رنَّ جرس المنبه .. استيقظ .. استحم .. ارتدى ملابسه وتعطَّر .. إنه يومه المهم، وعليه أن يظهر بأبهى حُلةٍ ليس بحاجة إلى والدته لتعينه أو إلى أبيه لأخذ نصيحة منه، فهو يتعلَّم بالنظر ويقتنص بمهارةٍ الأفكار التي

تتماشى معه .. هو قنّاص ذكي قليل الكلام، هو طفل صغير أجل، غير أن لديه تلك الملامح التي تجعله يبدو كشاب ناضج متى أخذ الجدُّ منه مَحمله حتى إذا ما ابتسم انسابت تلك الرجولة المُختزلة في جسده الضئيل لتمتزج معًا في وعاء واحد مع رونق الطفولة .. مزيج جميلٌ أزهرت معه ثناياه بأهازيجها التي أزغبت رموز البراءة من حوله، مزيجٌ لن تملَّ النظر إليه .. إلى ابتسامته أو الاستمتاع بحديثه الذي قد لا يطول .. أن يُخرج الرجل في داخله أو أن يظلَّ طفلا ذلك منوط بإشارة منه .. طُرق الباب .. كانت والدته التي أتت خصيصًا لتقديم الهدية التي أوصى بها .. علبة بحجم الكف مُغلفة بشكل راقٍ وعلى ظهرها بطاقة رافقتها مكتوب عليها: "أحبك ولن أنساك أبدا" ..

ــ ما رأيك بها؟

ــ هزَّ رأسه .. تناول إفطاره ثمّ غادر ..

استمتع الجميع بجوِّ النزهة المرح ماعداه، فبينما كان الصغار كلُّهم يحيطون بمعلِّمتهم الغالية التي ستفارقهم كان مُنعزلا عنهم وعنها وهي الأقرب إلى قلبه .. واجمًا صامتًا لا يشارك أحدًا ولا يسمح لأحد أن يشاركه لا أن يرافقه .. يسير وحيدًا في آخر الصف غير مهتم بما يجري حوله .. باله مشغول .. وأكُفّه لا تفارق جيوبه .. أيقنت بأنه لا يزال غاضبًا منها

فتصرفاته الغريبة جعلتها تلحظ ذلك، فمنذ متى يصدُّ عنها لا يريد التحدُّث معها أو الاقتراب منها .. لقد اعتاد منها التدليل قليلا، فهو المفضَّل لديها إلا أنها اليوم لن تُعامله مُعاملة مختلفة عن البقية .. قرارٌ تراجعت عنه سريعًا .. تركته على أن تُناديه لاحقًا لجبر خاطره ..

جلس الجميع قرب كوخ صغير عند حافة المتنزه .. وبعد تناول طعام الغداء قرأت إحدى المعلمات قصة أنصت لها الكل سواه، فقد كان انتباهه مُنصبًا على معلِّمته التي بدا عليها الإرهاق .. استأذنت صديقتها لأخذ قسط من الراحة .. لحظات وعلا جرس هاتفها النَّقال .. طلبت من الصغار الانتظار قليلا ريثما تعود إلا أنَّه تكفَّل بإيصاله لها .. كانت هناك مُستلقية على أريكة خشبية خلف كومة من الأشجار .. وقف يتأمَّلها .. لان جموده وانكسر غضبه أمام المرأة التي ستفارقه وربما لن تلقاه .. دقائق مضت .. ملامح الجِدِّ عادت .. عاد معها الشاب الذي استدعى قواه وألَّب شجاعته .. ثوانٍ ثمَّ دنا منها .. قبَّلها بشفاهه الصغيرة التي ما كادت تفارقها حتى شخصت عيناها .. انحسرت إلى الخلف تنظر إليه مذهولة وبأناملها خبَّأت مبسمها .. لم تصدِّق ما جرى: هل قبَّلتني أم أنني أتخيَّل ذلك؟

ــ ضربات قلبه المرتبكة تقرع داخل جسده الضئيل ناقوس الخطر .. فلا يبدو أن لقُبلته ذلك الوقع المريح على محيّاها وقد صدق حينما صفعته فأوجعته إثر إجابته ..

ــ لم ينبسا ببنت شفه، بل ظلا ينظران إلى بعضيهما .. منهم من يكابد دمعه ويحتبس الألم ومنهم من تغلَّب على دهشته، سألت بلهجة حادة: لِمَ قَبَّلتني؟

ــ لأني .....

ــ صمتت للحظة ثمَّ أردفت بحدة: ولكنَّ ذلك لا يعني أن تقبِّلني .. هناك حدود، فأنا مُعلمتك ..

ــ بجرأة أجاب مُعترضًا على ردة فعلها: أرى أمي وأبي يفعلان ذلك من حين إلى آخر ..

ــ إنهما متزوجان ..

ــ وما الزواج إلا علاقة بين رجل وامرأة ..

ــ هه .. نعم، إلا إنها علاقة مقدسة .. فهما لا يستطيعان فعل .. فعل ذلك الشيء إلا بعد أن يُسلكا طريقا معينة .. لديك الكثير لتتعلَّمه ..

ــ إن كُنت مُخطئًا لأني قبَّلت المرأة التي أحُب فهما مخطئان أيضا ..

ــ صعقتها جُرأته ودُهشت مُجَدَّدًا إثر إجابته: أنا لست مجرد معلمة بالنسبة لك .. أليس كذلك؟

ــ نعم .. أنتِ لستِ كذلك.. فأنا أحبك ولا أستطيع العيش من دونك ..

ــ كركرت مُردفة: لقد سمعت هذه الكلمات .. من أي مسلسل التقطتها؟

ــ ولماذا .. ألم تخبرينا يومًا أن نلتقط ما هو جميل من حولنا ونوظِّفه في حياتنا ..

ــ أجل .. لقد قُلتُ ذلك .. غير أنك وظَّفت الكلمات الصحيحة في التصرف الخطأ ..

ــ ربما أنَّ ما فعلته خطأ ولم أستوعبه جيدًّا وربما أنني طفل على عاتقه الكثير ليتعلَّمه إلا أنني صادقٌ في مشاعري وصدقيني حين أقول بأني أحبك

ــ لم تنطق، بل ظلَّت تنظر إليه مشدوهة تفتكر بحال تلك الكلمات الجميلة من أين أتى بها ..

ــ انتظريني ..

ــ ماذا؟

ــ انتظريني .. يومًا ما سأغدو شابًا وستقبلين بي .. لا ترحلي .. إنها بضع سنين فقط والوقت يمضي بسرعة ..

ــ أنت جاد؟

ــ نعم أنا جاد ..

ــ لحظات ثمَّ هبطت إلى مستواه .. تمعَّنت صورتها في سواد ناظريه، قالت وكانت قد هدأت: وهل تحبُّني حقًّا؟ فهزَّ رأسه: وماذا تعرف عن الحب؟

ــ ربما أنه الشعور بالألفة والراحة .. ألا تملَّ رُؤية من تُحب .. أن تُحبَّه سواء أكان جيدًّا أم سيئا..

ــ من علَّمك تلك الكلمات؟

ــ أمي، غير أني أجد بأن الحُب يتعدّى هذا الخط، إنه شيءٌ أستطيع الشعور به ولا أستطيع وصفه ..

ــ كلمات كبيرة تصدر من فمٍ صغير .. وكم من السنين عليَّ أن أنتظر حتى تغدو شابا؟

ــ بتلهَّف: بضع سنين فقط .. ربما عشر أو خمس ..

ــ أنت تحتاج إلى خمس سنين لتصبح مراهقًا وعشر لتنمو شابًا وعشر أخرى لتنضج رجلا حينها سأكون عجوزًا ولن تطيق النظر في وجهي ..

ـــ جعلت تترقَّب إجابته – التي طال بحثُه عنها – بفارغ الصبر:

عليكِ أن تنتظري لتتيقَّني بنفسك..

ـــ ابتسمت: ولكني لا أستطيع انتظارك .. عليك أن تنساني ..

ـــ لماذا؟

ـــ اكتنفت راحتيه قائلة:لأني لا أستطيع أن أبادلك المشاعر ذاتها، فأنت بالنسبة لي .. كنت ولازلت طفلي المُحبَّب ..

ـــ بحدة وانفعال متلازمين نزع راحتيه: ذلك ليس عدلا .. أن تعامليني كطفل صغير وألا تأخذي مشاعري على محمل الجد .. لو كنت الآن في مثل سنِّك لما كان هذا كلامك ولكن أتعلمين .. أنا مجرد طفل وأنت محقة .. فماذا يعرف طفل عن الحب سوى الدمى وقنوات الكارتون .. دفع إليها بهاتفها النقال وركن هديتها جانبًا ثمَّ ابتعد ..

لم تلحق به، بل جلست لدقائق تفكِّرَ فيما جرى منذ قليل .. الرجل الصغير الذي كان يحاورها .. غرابة الموقف .. ردة فعله وردة فعلها .. رنَّ جرس هاتفها .. صديقتها تستدعيها فقد حان موعد المغادرة .. كان الجميع هناك سِواه .. بحثوا عنه طويلا حتى عاد من تلقاء نفسه .. أثر الدموع التي انهمرت لم تستطع الانحسار خلف شواطئ رجولته المبكرة .. شعرت بالأسى حاولت التفريج عنه بتقديم الهدايا .. ألبست فتياتها قبعات

وللفتيان ربطات عنق عقدتها لهم، أمّا هو فقد أبى وحاول ربطها بنفسه .. حاول كثيرا وفي كلِّ مرة يفشل حتى ضحك منه أحد زملائه .. هجم عليه وأخذ يضربه .. لقد كان غاضبا، وقد وجد الطريقة المُثلى للتنفيس عن طاقته المكبوتة .. ولا يزالا حتى فرَّقت بينهما إحدى المعلمات وبَّختهما قولا وفعلا وأجلستهما منفصلين منعزلين عن البقية في آخر الحافلة .. استأذنت زميلتها ثمَّ همست للسائق فكان لها ما أرادت .. كان هو آخر الواصلين إلى منازلهم .. انتظرته حتى إذا ما مرَّ بجانبها قدَّمت له ربطة العنق التي رماها .. لم يُلق بالا لها واستمر في طريقه غير أنَّه تراجع: إن لم تقبل بهديتي فتعال خذ هديَّتك .. التفت إليها ثمَّ تمعَّن في الكفَّتين .. مدَّ يده لأخذ هديَّتها: عليك أن تعانقني في البداية قبل أن تأخذها .. لم يُحرِّك ساكنًا .. اجتذبته إليها .. ضمَّته إلى صدرها .. همست له: لن أنساك فلا تنساني .. حاولت أن تداعب غرَّته فحسر رأسه .. نصحته بوجه طلق:

عِش طفولتك ولا تتصرف كرجل كبير .. ها ..

كانت تتمنى أن يفترقا بابتسامة ..

إلا أن وجهه البائس الحزين ..

كان آخر شيء تتذكره ..

خفقات

ــ أين كُنتِ؟

ــ في غرفة العمليات .. متى وصلتِ؟

ــ منذ ساعة تقريبا ..

ــ لِمَ لَمْ تتصلي بي كي أصطحبك؟

ــ لا داعي فأنا أعلم بأنك مشغول دائما ..

ــ لكلماتِك مغزى ..

ــ هل سألقاكَ الليلة؟

ــ لن أعدك بشيء، فهو موسم العُطل كما تعلمين .. غير أنّي سأبذل جهدي كي آتي باكرًا ومع هذا .. لا تنتظريني ..

ــ بل سأفعل .. لا تتأخر وإلا سأغضب فكما تعلم .. أنا سريعة الغضب ..

ــ بما أنكِ قلتِ ذلك فسأتعمَّد التأخير .. كي تغضبي .. كي تجعليني أضحك ..

ــ افعل ما يحلو لك ..

ــ هل غضبتِ؟

ـــ إلى اللقاء ..

ـــ إلى اللـ..

ـــ انتظر .. أحبُّك ..

لم يجبها، بل جعل يتأمَّل هاتفه النقّال للحظة، ثمَّ أُستدعيَ مُجَدَّدًا .. نهض من غفوته نحو الواقع الذي يفرض عليه – كَوْنَهُ المالك الوحيد لمستشفى عريق كهذا – تأدية مهامه على أكمل وجه .. تأمين الحماية .. جلب الطمأنينة .. اقتناء أفضل الكوادر التي من شأنها معالجة الوضع الجنوني عند بوابة الطوارئ .. فالإصابات جعلت تتوافد بشكل متتابع ولم تهدأ إلا قبيل منتصف الليل بقليل .. لقد كان مُنهكًا وجسده المرهق التَّعِب بحاجة ماسة إلى ما هو أشبه بفراش ليستلقي عليه .. توجَّه حالا إلى إحدى الغرف التي يكتنفها جناح لا يسكنه إلا من كان قادرًا على دفع مُستحقاته .. قاطنه يتمتَّع بالدلال الكامل بأفضل الامتيازات وباهتمام الكل ..

ـــ كانت تقرأ حينما ولج عليها .. خلعت نظارتها تنظر إليه وهو يشرب كوب الماء يتلوه آخر جالسًا:

ماذا؟ هل أتيت للتَّو من ماراثون؟

ـــ قال بعد أن التقط أنفاسه: نعم إن ما جرى لي أشبه بماراثون .. كيف حالك؟

ــ بل كيف حالُها .. تقضي اليوم بطوله بصُحبتها ثمَّ تسأل عن حالي ..

ــ آه .. ها قد عُدنا مُجدَّدًا ..

ــ تلك هي حقيقتُكم أيها الرجال .. الكذب .. المزيد منه ثُمَّ المراوغة

ــ عَمَّ تتكلمين؟

ــ اعترف .. لِمَ تستمر بالادعاء .. لن أسمح لقلبي العليل أن يطمس حدسي كامرأة .. أنا زوجتك وأكثر الناس معرفة بك .. أخبرني ولن ألومك صدقني .. فأنت رجل تحتاج إلى من يرعى رغباتك لا إلى امرأة هي حبيسة فراشها وتحت سُلطة أجهزةٍ ليس بيدها أن تُطيل من عمرها أو أن تُنقصه فهي أشبه بركامٍ يلفظ آخر أنفاسه أقرب إلى الموت منها إلى الحياة .. أسدلت رأسها .. صمتت للحظة ثُمَّ أردفت: لابُدَّ لي من الرضا بقدري .. ربما أنَّ في الموت خيرٌ لي ..

ــ جلس بالقرب من ساقيها:لِمَ كُلُّ هذا اليأس .. لا تقولي ذلك .. سيأذن الله يومًا بشفائك .. كما أنّني زوجك .. أفضل جراح قلب بلا منازع .. لن يتركك عُرضة للموت ولن يستبدلك بامرأة أخرى ..

ــ ها أنت تكذب مُجدَّدًا .. استلقى بجانبها وطلب منها أن تَلْتَقِيَ به وجهًا لوجه وأن تداعب خصلات شعره الداكنة حتى يغفو: ولكن ..

ــ أرجوكِ بنبرة استعطافٍ أرغمتها .. فَعَلَتْ .. ومع مرور الوقت هدأت .. اقتربت أكثر .. قبَّلته دون أن يشعر .. همست له دون أن يعي: أنا لا ألومك .. أعلم .. أنا فقط غيورة .. مزعجة وغيورة .. لا أعلم متى ستملُّ مني وتعيش نهائيًا معها ..

ــ لم تتحدثي مع نفسك ..

ــ تفاجأت: منذ متى وأنت مستيقظ؟

ــ مذ توقفتِ عن مداعبتي .. تعلمين بأني لا أغفو بسرعة ..

ــ هل سمعت شيئا ممّا قلت؟

ــ لا شيء .. أيتها الغيورة تابعي عملك وإلا مللتك .. هيا لا تزعجيني ..

ــ أيها الكاذب لقد سمعت كُلَّ شيء .. هيه استيقظ .. استيقظ ..

ــ لقد كان يشخر .. حتى إذا ما ابتسمت ضمَّها إلى صدره: لقد دلَّلتك كثيرًا ..

ــ أنا مريضة وأحتاج إلى التدليل ..

ــ وأنا مريض أيضا وأحتاج إلى علاج ..

ــ وما هو علاجك ..

ــ قبلة أخرى ..

هجعت مخاوفها لمّا هربت من سخط العالم عليها – فلا قَلب يقبل أن يكون محلَّ قَلبها – إليه كي يواسيها ففي النهاية هو قَلْبٌ واحد ..

خفقاته تنبض هنا ..

وهناك ..

كانت الساعة قد بلغت تمام الثالثة حينما رنَّ جرس هاتفه .. تسلَّل خارجا:

سوف آتي حالا .. عاد لأخذ معطفه ليخرج كما ولج ظنًّا منه أنّها لم تشعر به ..

لقد أخطأت ..

ألم تعلم حال المُخدَّرة حين يُنزع منها خِدرها ..

كيف تفزع وتنطوي على نفسها ..

أنت سِترها وبرحيلك كشفت لها ..

عيوب نفسها .. حقارة ضعفها ..

وحجم الألم الذي تفصَّد كالأمواج العاتية داخل جوفها المتهالك ..

جعلها تبدو كالعثرات .. عثرات تتعثَّر بها في كل مرة لا تسْلم من الوقوع في حُفرها ..

بحور مظلمة الواقع فيها هالك لا ناج ..

الغيرة والحسد ..

غير أني لن أستسلم لأيٍّ منها ..

فأنا ساكنة جنانه .. وقد تركت للآخرين الديار ..

أعلم ذلك ..

فأنا أنظر إليه .. ولا أدَّعي تصديقه في كلِّ مرة ينطق بها:

أحبُّك ..

هو رجل وأنا امرأة ناقصة ..

متى عوفيت ..

سيتركها وسيعود حتمًا إلي ..

لم تغفُ تلك الليلة .. ذاك حالها منذ شهر تقريبا ..

أجفانها الناعسة تظلُّ ناعسة .. حتى إذا ما أقبل عليها ..

أسدلت الستار ..

الدقائق تمرُّ مرَّ السحاب المُثقل بالدموع وهي تنتظر على أحرِّ من الجمر اللحظة حيث يلج فيها مِفتاحه قُفل الباب .. يختلج المقبض ويُفتح الباب لتراه ماثلا أمامها .. انتفضت لمّا تحقَّق لها ما تمنَّت .. أسرعت إليه تقبِّله فصدَّ عنها مُقبِّلا وجنتها .. نكَّست خيبتها تداعب أزرار قميصه .. لم تحمِّله خطأ ما جرى، فهي من تعجَّلت وقد سألها التَّأني ..

ــ ما الشيء المُميَّز في أزرار قميصي حتى تنشغلي بها عني؟

ــ لا شيء ..

ــ انظري إليْ .. أيامٌ قليلة هي التي قضيناها معًا .. إلا أني أعلم أدق تفاصيل نبرة صوتك حين تشوبه شائبة .. ما بالك؟

ــ تحدَّثت، تحدَّث معها سحر المرأة القديم يتنازل لإرضائه من الرجل عُنفه وعُنفوانه: لقد أعددت لكلينا ليلة مميزة ابتعت لأجلها ثوبًا خاصًا جدًّا .. لم أتناول طعامي .. كنت أنتظرك .. ولكن يبدو من استقبالك الحار لي أنَّك لست في مزاج يناسب تطلُّعاتي .. لا بأس .. لقد سألتني التَّأني وأنا من تعجَّل .. امم لا بأس .. سوف أنتظر .. ابتسمت وبين شدقيها غُصَّة غصَّ بها لم تتمكَّن أعذراه من دفعها .. خجل من مماطلاته ومن صدِّه المتواصل لها .. كانت قد ابتعدت حينما: سوف أذهب لأستحم و عندما أخرج .. أتمنى أن أرى ذلك الثوب يزِّين قامتك وشيئا من تلك الليلة التي أعددتها لي .. لم تصدّق أنَّ .. الأمنية قد .. تحقَّقت ..وزمن المماطلات قد ولّى .. وأنَّها ستحظى أخيرًا به .. خفَّت الخطا إلى غرفتها تُعدُّ نفسها وتُهيِّئ الأجواء لليلة لا تُنسى .. كان حينها على وشك الانتهاء عندما سَمِعَ ضجة .. خرج ليجدها مُلقاة على الأرض مغمىً عليها .. قطع الزجاج من حولها وثوبها الخاص من أعدَّت له العدة .. اصطبغ بلون العزاء فكأنَّه ينعيها.

استيقظت حدود العاشرة، لم يكن هناك، وبدلا عنه وجدت قصاصة دُوِّن على ظهرها ملاحظة: " لقد خرجت منذ قليل .. لم تتناولي طعامك وانتظرتِني .. أرهقتِ نفسك وقد حذَّرتك من فِعل ذلك .. لقد أعددتُ لك سلطةً غنّاء وحبوبًا تناوليها .. لا يبدو أنَّك أخذت أيًّا من الحُقن التي أوصيتك بها، ولذا لن أعتمد عليك .. أعطيتك حقنة الآن وسأعرِّج عليك مساءً لأعطيك أُخرى .. لا تجعلي حالتك تسوء وإلا اضطررت إلى نقل دم سريع لك لست بحاجة له إذا ما اتبعتِ تعلياتي .. اتصلي بي .. "

ظلَّت مستلقية لساعة أخرى، تتحسَّر كلّما تذكَّرت تلك الإغماءة التي فاجأتها، ضيَّعت عليها فرصة كانت بانتظارها، والحلم الذي كانت ترجوه ما إن أفاق حتى اختفى، ثمَّ نهضت تمشي بتثاقل نحو غرفة الطعام لتجد الملاحظات في كل مكان وبترتيب رقمي ..

مرحبًا بك في عيادتي الخاصة .. عصير البرتقال داخل البرّاد .. تناولي السلطة في البداية .. شغلي المايكروويف .. تناولي حبوبك الآن .. متى انتهيت من تناول إفطارك .. انظري إلى نفسك في المرآة ثمَّ اكشفي عن محتوى المغلَّف الأخير .. وأمام المرآة وقفت فتحته ليزهر وجهها إثر كلماته التي كادت تجعله يقطر دمًا: " أتمنى أنك لم تستبدليه بعد .. ظللتُ معظم الوقت أتأمَّل جمالَك وقد زانك .. ولولا كُونك نائمة لكنت تجاوزتُ

حدودي و (حسنًا أنت تعلمين) لقد كنتُ أسيرك تلك الليلة .. عليكِ بتعويضي عنها في وقت لاحق .. أراك .. "

كان من واجبه أن يعرِّج عليها كي يطفئ لهيب قلقها، فهي تنتظر منذ البارحة إلا أنَّ واجبًا أسمى جعله يتغاضى عنها مُرغمًا، فحياة على المحك بحاجة ماسة إلى عملية إنقاذ .. توَّجه حالا إلى غرفة العمليات حيث كان الكل على أهبة الاستعداد .. تناول المشرط و باسم الله بدأ .. وبعد ساعة تقريبًا ارتفع ضغط المريض بشكل مفاجئ وفي تلك اللحظة بالذات أتاه من رفع من حدة توتره يُخبره أنَّ قلب زوجته قد توقَّف .. ذلك أنها ألحَّت على الممرضات تسأل عنه .. لم تصدِّقهم، فنهضت من فراشها تبحث عنه إلا أنها كانت خطوات معدودة حتى انهارت، فقلبها المُتضرِّر لم يُسعفها ولم يخضع لأوامر جسدها الذي يسير بأمره .. ومن ناحية أخرى كان هاتفه النقال يرن .. تتصل به، كما طلب منها، ولكن ما من مجيب، فمن ذا الذي يجيب على حاله وقد تردَّت نحو الصفر وانحدرت بشكل زلق نحو القاع .. بدا كالكسيح خذلته كلُّ أطرافه .. بصرٌ شاخص .. أناملُ متجمدة وكيانٌ مُتصلِّب كالحجر .. لا يقوى على النطق .. عاجز عن الحركة .. لا يعلم ماذا يفعل ولا إلى أين يتجه ..

إلى قَلبها الذي هو قُلبه ..

أم إلى الذي بين يديه يلفظ آخر أنفاسه ..

لقد كان في حيرة لم تبدِّدها، بل أضفت شيئًا من النور عليها حين تكلَّم أحد الأطباء المقيمين قائلا باختصار يوجِّهه: دكتور .. انظر إلي .. نحن أطباء مهمتنا إنقاذ الأرواح .. لم تكن هناك كي تنقذها، ولكن من ذا الذي سينقذه إن أنت رحلت .. لدينا مهام علينا تأديتها ولأجلها نضع قلوبنا خارجا قبل أن نحاصر بين هذه الزوايا الأربعة .. حكِّم عقلك ودع عواطفك جانبًا فالوقت ليس مُناسبًا وهو قرارك .. إما أن تجعل هذا الرجل يعود إلى عائلته أو أن تسمح لرياح الندم أن تندفع بضراوة إلى حياتك التي ستُثقل بالهموم وصدقني حين أقول .. أن الندم قاتل شرس لا يعرف الرحمة .. كان لكلماته ذلك الوَقْعُ القاسي على ضخامة واقعه المصدوم بفاجعته التي كانت، إلا أنها جعلته ينتبه ويتذكَّر كونه من يكون .. خشع بصره ولانت أنامله أمّا خفقاته فلا سيطرة له عليها تجري على عجل إليها تثب فوق دركات الأمل علَّ حياةً تدبُّ وسط جوفها الفاني .. نصف ساعة أخرى وأنهى عمله ترك لهم تقطيب الجرح وخرج مُسرعا كاللاهث عَطِشًا خلف السراب يروي به ظمأه وقد ارتوى لمّا رآها نائمة قد استقرت حالها ..

هدأ أخيرا واستتبَّ هاجسه ..

فالموت قاس ولو كان به رحمة ..

فما بالك بمن يصارعه كلَّ يوم ويراه ماثلا أمامه في كلِّ لحظة ..

لّما أفاقت كان قرب النافذة يراقب المارة فلمّا نادته التفت إليها كمن تفاجأ على حين غرة ثمَّ اندفع يلثمها بشغف وكأنه يفعلها للمرة الأخيرة ..

علِم ساكن الجنان أنَّه الساكن الوحيد هنا ..

فأشواقه المتدافعة لملء الفراغات ..

وعاطفته التوّاقة لأياديهم كي تتشابك ..

جعلت منه تلك الغيمة البيضاء التي تمطر أرضه صيفًا وتثلج في الشتاء صدَّ عنها فعلمت أنَّه إما باكٍ أو غاضب وقد كان كليهما ..

ــ أعتذر ..

ــ إياكِ أن تفعلي ما فعلت مرة أخرى ..

ــ حسنًا .. ومن دون أن يريها وجهه تركها ..

باسترخاءٍ تام وبابتسامةٍ فاتنة اتكأت جانبًا مع يقين بأنّه حتمًا سيعود لاحقًا وقد تبدَّل حاله ..

وبالفعل عاد ولكن ليس لأن أحواله قد تبدَّلت بل لأن حال زَوْجِهِ قد تدهورت .. لقد بدأت مشوارها القصير نحو نهاية مسدودة .. لم يغادرها تلك الليلة لا اليوم الذي يليه .. إنها تهوي ولا قدرة له على التقاطها .. اللحاق بها أو احتوائها بخوفه المُتباكي ..

إيمانه مهزوز وحبل نجاته مقطوع ..

تلك الأيادي التي أنقذ بها العديد من الأرواح ..

بُترت أمام عجزه وقلة حيلته ..

أدرك في تلك اللحظات العصيبة كم هو ضعيف كونه بشر ..

بحاجة ماسة إلى القدرة الإلهية والرحمة الربانية ..

خفقاته التي خفقت لطهارة حبِّها الصافي ..

الواقع تحت استبداد قلب لم يبذل جهدا للترفُّق بحاله أو حالها ..

هو القلب ذاته لم يزل مُستبدا حتى الآن ..

قد استدعى أهازيج الموت من كُلِّ مكان ..

بتر يديه .. صدَّ آماله وكشف عيوبه ..

جعله يبدو ..

كالأفكار الشاردة ..

لا سماء تظلُّها ولا أرض تؤويها ..

كلَّت أناملها وتدفَّق شوقها غزيرًا، فنفذ صبرها، فهو لا يردُّ على أي من اتصالاتها .. كان مُنشغلا بمحيطه خارج حدود عالمها، فقررت الذهاب إليه إلا أنَّ الرؤية انعدمت أمامها .. صدمتها مركبة كانت مسرعة .. لم تُصب بأذى سوى بعض الخدوش إلا أن الدكتور الذي عالجها والذي

أجرى فحصًا شاملا لها للتأكد من سلامتها أفصح لها عن وجود ورم دماغي في تضخم مستمر هو من سلب الرؤية منها .. ورمٌ فات الأوان على علاجه أو استئصاله .. لم تصدقه وأكدت له بأن مابها ليس سوى فقر دم ..

ــ من أخبرك بذلك؟

ــ زوجي الذي هو دكتوري الذي أثق به ..

ــ عُذرًا ولكن إما أنّه يدَّعي أم أنَّه يُخفي الحقيقة مُراعاة لمشاعرك .. ولكي تُؤكد له صحة ما قالت أخرجت له الأدوية التي تتناولها والحقن التي تتعاطاها: تلك أدوية لتخفيف الأعراض المصاحبة لهذا النوع من الأورام .. منذ متى تتناولين هذه الأدوية؟

ــ منذ شهر تقريبا ..

ــ امم ..

ــ ماذا؟

ــ نعم أعتقد أنَّه كما قُلت ..إنَّه يُخفي الحقيقة مُراعاة لمشاعرك ..

ــ ربما .. بنبرة مجوَّفة وبطرف مُنكسر ..

" سوف آتي بعد قليل " رسالة قصيرة تلقّتها بعد غياب ليومين .. عندما وصل تفاجأ بملاحظات مرقَّمة ملوَّنة تدلُّه على الطريق:

" اخلع معطفك .. لا ترمه أرضًا بل علِّقه .. كيف حالك؟ لِمَ لم تجب على اتصالاتي .. اجلس هنا .. لِمَ لم تُجب بعد على سؤالي .. كُنت مُنشغلا .. لا بأس .. اقرأ السطر الملون في الكتاب على المنضدة الصفحة التاسعة .. أين أنتِ؟ سوف أجدك؟ .. هل أنت جاد في البحث عني؟ .. إن كنت كذلك فلديك خيارات ثلاثة .. الخيار الأول: المغطس حيث أنا الآن مستلقية أستمتع بالرغوة بالروائح الطيبة .. الخيار الثاني: غرفة نومي وتلك الليلة التي مضت لن تخذلني مُجدَّدًا .. الخيار الثالث: النجوم ألتقطها بيدي وأخبئها في صندوق صغير حتى تأتي .. " بحث هنا وهناك فلم يجدها .. صعد إلى الأعلى فوجد الأجواء مهيَّأة لسهرة رومانسية عذبة إلا أن ضيف الشرف لم يكن هناك .. ملاحظة أخيرة: " أنا بانتظارك .. أين أنت؟ "

كانت هناك في غرفة الطعام تنتظره .. ابتسمت له ثمَّ اقتربت منه فصدَّ عنها يقبِّل وجنتها فصدَّت عنه حتى إذا ما تلاقى بصره ببصرها دنت منه تُرغمه .. خوفه جَلي وصراعه ضد تردُّده كشف أمره .. لم تُكمل .. توقَّفت: احملني إلى الأعلى .. تنهَّد كمن ارتاح ثمَّ حملها وفي الطريق قالت: لقد علِمت .. لقد غَفرت لك .. سقطت ذراعها التي كانت تحيط عُنقه .. مال رأسها وذبلت أجفانها .. أسرع بها نحو الغرفة المحَّرم عليها دُخولها – غرفة

عمليات مجهَّزة معقمة – حاول إنعاشها .. أفلح ولكن لا جدوى .. قلب ينبض ودماغ مشلولة ..

ظلَّ بقربها صامتا ينظر إليها بائسًا حتى رنَّ جرس هاتفه النقال يُخبره أن زوجته تحتضر .. لم يجعله ذلك يفزّ من مكانه حالا، بل جلس لدقائق يفتكر في كلماتها:

" لقد علِمت..لقد غفرت لك " ..

هل علِمتِ فعلا؟

ماذا تعني؟

أتعني ..

سرقة قلبها والتخطيط لذلك من البداية ..

سبب صدودك عنها وعدم إعطائها حقها كامرأة أحبَّت وتمنَّت لو بادلتها نفس المشاعر أو شيئًا منها .. كذِبك .. خداعك أم تلك الحقنة التي أتيت بها تنوي بها التعجيل في خلاصها ..

نعم لقد علِمت وقد غَفرت لك ..

مُتثاقلا غسل يديه .. ارتدى قناعه وقفازيه .. تأمّلها للحظات من ثَمَّ قبَّلها قبلة الوداع التي لم تشعر بها .. نزع قلبها ووضعه داخل صندوق

خاص .. لحظات و أطفأ أجهزة الإنعاش .. غطّاها وبالكاد خرج فقد كان الأمر شاقا وصعبا بالرغم من أنَّه قد تهيَّأ له مُسبقا على أنه احتمال وارد ..

استطاع أن يُنقذ زوجته إلا أنه دفع الثمن غاليا فقد كُشف أمره وعليه فقد اتهِم بالقتل عمدًا وبعد أسبوع من الآن لن يكون هو الآخر هنا أيضا، بل سيلحق بها ..

سُمح له بزيارة أخيرة وكانت من زوجته التي تبدو بصحة جيدة ..

ــ ابتهج لمّا رآها بكدرٍ لم يفارقه: كيف حالك؟

ــ لِمَ قتلت؟

ــ فلم يُجبها ..

ــ لِمَ قتلت؟ بلهجة تأنيب غاضبة ..

ــ لأني .... فعلت ذلك .. لأنّي لا أستطع العيش من دونك .. فعلت ذلك ..

ــ وهي ..

ــ تفاقم كدره لمّا تذكَّرها: هي .. لم تكن لديها فرصة للنجاة فالورم كان في تضخم مستمر وقد فات الأوان لاستئصاله .. أدركت ذلك منذ لقائنا الأول وحينها .. خطرت ببالي تلك الفكرة .. حتى إذا ما أتت تلك اللحظة التي لم أتدخّل بها .. نزعت قلبها حينها .. أدركت كم مرة قتلت بها

تلك المرأة .. لم أقبِّلها لم أمسَّ جسدها .. كنت أكذب عليها طيلة الوقت عَلمت أن قلبي مُتعلِّق بك ويأبى خيانتك ومع هذا لم تشتكِ يوما كانت ترغب بالقليل .. بالقليل الذي بخلت به .. كانت بين يديَّ لمّا قالت " لقد علِمتُ وقد غَفرتُ لك " تلك الجملة جعلت مني قاتلا ثمَّ أجهش بالبكاء .. حال الزجاج بينها وبين أن تصل إلى دمعه فما كان منها إلا أن خادن دَمعُها دَمعَه ..

وهناك في غرفة الإعدام التي لم يحضرها سوى نفر قليل كانت من بينهم .. لفظ العاشق آخر ما في جوفه من كلمات حُبٍّ شوقٍ واعتذارٍ مرتَّلة عبر الأثير وهو ينظر إليها ..

الغرفة فارغة ..

وهي لا تزال جالسة تنظر جامدة إلى المكان حيث كان ثم رحل ..

أتاها من يسألها المغادرة ..

هزَّها فمالت ..

لم تكن هناك هي الأخرى ..

لقد رحلت خلفك ..

أيها العاشق ..

ألم تعلم ..

أنها هي أيضا ..

لا تستطيع العيش من دونك ..

فقلبُها هو قلبُك ..

وخفقاتُها .. خفقاتُك ..

لغة غير مرئية (١)

قُبيل قليلٍ من انتزاع قلبها كانت تناجيه .. منديلي الذي كان يُصغي إليها بإنصات: أيُّها الرجل الصغير .. يبدو أنّك الوحيد من أحبَّني .. ليتني صدَّقت كلماتك وانتظرت .. إلا أنّه لا فائدة تُرجى من الانتظار .. فالموت يُلاحقني وأيامي باتت معدودة .. خير لك أني رحلت .. فنهايتي لن تكون سوى بداية تعيسة لك كما أنَّ هذا القلب لن يكون وفيًا يومًا لك .. أحسست الآن بمدى ألمك والضيق الذي تغشّاك والغضب الذي اعتراك لمّا صددتك .. أعلم الآن كم أنَّ الحُب أناني عندما لا يستجيب له الطرف الآخر .. إنه لا يقبل المشاركة .. المنافسة أو المساومة .. لقد وقعت في الشَرَكِ ذاته ولكن ماذا عليَّ أن أفعل .. فقنّاصي هو من أُحب .. وحتى يأتي اليوم الذي يُصدّني فيه .. فهو من أُحب أن أرى قبل أن أرحل .. وبعد رحيلها بأيام سطا على المنزل مجموعة من اللصوص .. ملؤوا أكياسهم من كل غالٍ وبالٍ وقعت عليه أيديهم ثم هربوا دون أن يتركوا أثرًا لهم .. وزَّعوا ما جنت أيديهم من عارٍ بينهم .. أمّا المنديل فقد كان من نصيب أصغرهم سنًا، مُراهق في السادسة عشرة من عمره .. احتفظ به .. أهداه لحبيبته التي تسلَّلت بصحبته سرًّا إلى منزله .. كانت الساعة قد بلغت تمام الحادية عشرة

حين فُتح الباب .. ساروا على أطراف أناملهم إلى غرفته وأغلقوا الباب خلفهم.

لم تستيقظ الشمس بعدُ من سباتها إلا أن الفجر قد حان .. طرقت الباب وعندما لم تجد استجابة فتحته: هيه بني استيقظ فلقد تأخرت .. هزّت ذراعه بل بالأحرى ذراع الفتاة التي كانت تتأبَّط ذراعه ... استيقظت مذعورة فقد كانت تنظر إليها .. ابتلعت ما أصابها وأيقظته .. لم يرتبك حينها .. همس إليها قائلا: هي عمياء فلا تقلقي .. غير أن تلك العمياء لم تكن غبية .. إذ وقعت يدها دون قصد منها على صدرها المُمتلئ دون أن تدري: من أنتِ؟ تشقلب الحال .. أبعدها عن الطريق: إنها وسادتي خالتي .. لم تُصدقه، ووقع الأقدام الذي أحسَّت به جعلها تندفع نحو الباب خلفها أوصدته وخبَّأت المفتاح في جيبها .. أخذت تبحث هنا وهناك تحاول اصطياد من تقفز الآن تثبُ كالأرنب من مكان إلى مكان .. توشك أن تنال منها ويوشك قلبُها أن يقع لولا النافذة التي كانت تطل على شجرة عرجاء غنية بالثمار، بالأوراق الندية .. هربت من خلالها إذ لم يكن هناك من ملجأ سواها .. هربت بعد أن طلب منها أن تلتقيه في الحظيرة .. وبعد دقائق من محاولاتها استسلمت الخالة بعد أن صدَّقت مُرغمة أن ما وقعت عليه يداها لم يكن سوى وسادته المحشوة .. ارتدى ملابسه حالا .. ودَّع خالته وإليها

يوافيها .. كانت هناك قد حشرت نفسها في الزاوية قُرب البقرات الثلاث اللاتي كُنَّ يُنظرن إليها شزرا .. ابتسم ينظر إليها: أيُعجبكَ ما آلت إليه حالي بسببك .. لولا الظلام لكان أمري قد افتُضح .. كركر ضاحكا .. بضيق سألته: هل أحضرت ملابسي؟

ــ فهزَّ رأسه ..

ــ إذن هات ..

ــ ليس الآن .. خمس دقائق بعدُ فاتنتي .. مضى الوقت دون أن يُشعرا به وزاد عندما ولجت الخالة تُطعم بهائمها .. استغربت إثر أجواءٍ لم تكن مألوفة لديها فهي عذراء لم تُمس تكاد تبلغ الأربعين ولأنها عمياء لم يقترب منها أحد .. تحصَّنت بمجرافٍ ودنت بهدوء .. كانا في غفلة عنها عندما كاد المجراف أن يهوي على رأسه لولا أنَّها دفعته ليهوي على كتفها .. صرخت من شدة الألم ..

ــ كُنت أعلم بوجود شيء مُريب .. من أنتِ ها؟ من أنتِ؟ ساعدها على النهوض مُتفاديًا الضربات العشوائية التي لم يسلم من بعضها .. كانت على وشك النفاذ، لولا أنَّ إحداهن .. الأشد توترا بينهن نطحتها برأسها الضخم .. رمتها أرضا ليتمرَّغ وجهها بالفضلات التي يعبق المكان بأريجها الأخّاذ .. استطاعت الهروب بعد أن تلقَّت عدة ضربات أخرى ليتبقّى هو

.. كادت أن تهشّم رأسه لولا أنّه أوقفها بصوته الموجوع: لا .. توقفي .. إنه أنا ..

ــ أعلم أنه أنت .. ولكن من تلك؟

ــ تلك هي صديقتي ..

ــ وماذا كنتما تفعلان معًا؟

ــ بوقاحة: وماذا كنا نفعل معًا برأيك؟

ــ يا إلهي .. أتسرق وتكذب وتزني أيضا .. ماذا فعلت كي أجني منك كُلَّ ذلك .. ألم أعاملك كابن لي ..

ــ هيه .. أنا لست ابنك ..

ــ إذن فلم بقاؤُك تحت سقفي؟

ــ أنت محقة .. لقد طفقت الحياة هنا ومعك خاصة ..

العاطفة هي الركن الوحيد الذي تلتجئ إليه كُلُّ المشاعر والأحاسيس .. هي الكائن الذي قد يقلب الموازين .. قد يجعل الخطأ سيِّدًا فوق الصواب الذي يُحني رأسه بائسًا .. وبالرغم من هذا فهي لم تنحنِ وقد خرج وطالت غيبته .. لم يُثنِها عن ذلك كونه اليتيم الذي لا قريب له سواها والربيب الذي تنعَّم بحنانها مذ كان في السادسة ومع هذا تركته .. فكلماته كانت قاسية كما أنّها ضاقت ذرعًا بتصرفاته .. لقد خرج عن السيطرة وقد آن

الأوان لـه كي يخوض غمار الحياة علَّه يكتشف أنَّ الصواب هو المتسيِّد كما كان وأن الخطأ هو العبد الذليل الذي لم يزل قابعًا في قفصه .. إلا أنه وبعد أيام قليلة وفي ذات مساء كاد الباب أن يتحطَّم إثر ضربات كادت أن تخلع كتفه وصَيَحاتٍ تستنجد وتستغيث .. ما إن فتحته حتى نفذ إلى الداخل مذعورًا وأوصد الباب خلفه .. مُثخنٌ بالجراح مُترعٌ بالدماء .. وجهٌ متورمٌ وذراعٌ مكسورة: خالتي ساعديني إنهم يريدون قتلي ..

ــ ماذا فعلت؟

ــ لا شيء .. صدقيني لاشيء ..

حاول الاختباء إلا أن الوقت لم يُسعفه .. لقد تحطَّم الباب حقًّا هذه المرة .. دفعوها جانبًا مُكملين ما بدؤوه وهي تصيح بهم ترجو وتستعلم حتى إذا ما بدأت بالبكاء توقفوا: توقفوا .. إنه قريبي الوحيد .. أعلم بأنّه ارتكب العديد من الأخطاء إلا أنّه مُراهقٌ .. أغراه شبابه ورونق الحياة .. أنا هنا وسأصحِّح جُلَّ أخطائه حتى يعود إلى صوابه ولكن لا تقتلوه أرجوكم

ــ امم .. قال زعيمهم .. أكبرهم سنا وأضخمهم جثة: وهل في جعبتك خمسون ألف دولار ..

ــ فغرت فاهها: ماذا؟

ــ قريبك هذا يعمل في عصابتي .. أعترف بأنّه ماهر وذكي إلا أن الطمع أعماه .. لم يرض بحصته حتى ابتلع الحصص كلَّها وهرب .. لقد استرجعت مالي إلا أنه لن يسلم من عقابي مالم يدفع لي الضعف .. أخبرني مُسبقا بأنك لا تملكين ما أطلب ولذا لا فائدة تُرجى من الحديث معك ..

ــ ارتفع صوت صراخه فارتفعت نأمة ضعفها وعاطفتها التي دفعتها: توقف .. بعد يومين .. تعال واستلم المبلغ كاملا ..

ــ وماذا ستفعلين؟

ــ لا شأن لك ..

ــ صدقتِ .. المهم هو القَبْض .. سوف أتركه عندي كرهينة .. إياكِ أن تخبري أحدًا وإلا فإني سأمزقه أمامك إربًا إربا وأرميه لبهائمك .. حاول منعها بصوته المبحوح الذي جعل يتوارى خلف مجسات الضباب التي .. أفقدته وعيه.

ما إن أعلن الفجر عن مضمون خطابه حتى استيقظت لم تكن بَعْدُ قد غفت .. استعدت .. تناولت حقيبتها وانطلقت .. استقلت الحافلة إلى وسط المدينة حيث استطاع مكتبُ عقاراتٍ أخيرٍ ولجته بعد أن كلَّت قدماها من عدةٍ غيره لم يكونوا بأفضل منه .. استطاع أن يقدِّم لها عرضًا متواضعًا أربعين ألف دولار لا غير، مما اضطرها لبيع أثاث المنزل كاملا .. كان

منديلي مَرميًا فوق أرضية غرفته حينما أحضره أحدهم .. سلَّمه لسيّده الذي سلَّمه إيّاها وثمن الأثاث الذي عانق الجدران ورحل .. خمسة آلاف دولار وأخرى غيرها كانت تحتفظ بها ليكتمل النِّصاب الذي سقط في يد النّصاب الذي صبَّ جام وعيده في أذنه قبل أن يرحل ثم رحل .. هرعت إليه .. تضمه إلى صدرها .. تداوي جراحه وتغذّي أنين عاطفتها التي لم تهدأ مذ فارقها صوته الذي تسلك به دروبها المظلمة تُشعل به أساريج النهار التي انطفأت، لم تعد تستلذ بالنور مذ فارقها إلا أنه صدَّ عنها .. أنَّبها على ما فعلت .. لقد أفَلست بسببه .. ألقى اللوم على نفسه مع نحيب وبكاء .. غادر بعد أن وعدها بأنَّه لن يكون عِبئًا ثقيلا عليها بعد الآن.

لمّا سلَّمته المبلغ كاملا لم تفتكر أنها بذلك أصبحت مُشردة بلا مأوى .. مُفلسة لا تحمل في حقيبتها سوى بضع دولارات لا تكفيها حتى لشراء وجبة مثالية .. كان همُّها إنقاذه .. أن تغذّي ذلك الأنين وأن تُسبغ عليه من ظلالٍ وافرة من حنانها .. كان باستطاعتها المكوث لدى جارتها ولكن إلى متى .. لقد آثرت الرحيل دون وداع، فهي الأخرى لا ترغب في أن تكون عبئًا ثقيلا على غيرها وإن كانت المودة بينهما ستمهِّد الطريق، ومع هذا فلكلٍّ مشاكله .. استقلت القطار المُنطلق نحو العاصمة .. تاهت وتعثَّرت .. سُرقت وجُرحت مشاعرها إثر أُناسٍ لا همَّ لهم سوى .. إكمالُ يومهم

وجَنْيُ الأرباح في النهاية .. كمًّا كانت أم همّا .. لقد كانت تعيش في عالمها الذي تُسيطر عليه بكُلِّ جوارحها لا يشوب سعادتها شائب ولا يكدِّر صفو رضائها التام عن قدرها راغب حتى أتى من بعثر وأثار .. ما جعلها في حيرة وانتظار .. لا همَّ لها الآن سوى بلوغ المكان المنشود، وبشق الأنفس تمكَّنت من الوصول إليه .. إلى مركز لذوي الاحتياجات الخاصة بُني على حساب أحد المتبرعين يوفِّر لمُنتسبيه المأوى من مأكل ومشرب وملبس بالإضافة إلى الرعاية الصحية .. مكثت هناك قُرابة الثلاثة أشهر .. الدروب المُظلمة لا تزال مُظلمة وأساريج النهار من انطفأ نورها قد اندلق زيتها فوق الدروب فأصبحت زلقة .. كلّما حاولت النهوض دفعها قلقها عليه .. تخطو خطوة وتقع .. تنهض ثم تقع .. لو أن صوته فقط .. يكون حاضرا لثوان كي يرفرف بها نحو الطرق السالكة حيث كانا معا .. تبتاع له المثلجات .. تحمِّمه .. تطعمه قطع التوت بيدها وتصحِّح له أخطاءه كما كانت ولا زالت .. لم تحمِّله وزر ما جرى لقد ألقت اللوم كاملا عليها، ولذلك كانت في حال يُرثى لها .. بدا وكأنَّ الموت يحبو ناحيتها فما النفع من حياة لا أثر له فيها .. إلا أن الغائب كان أسرع من الموت إليها .. أتى لا يدفعه شوقه وإن كان .. أتى مكبَّلا يجرُّه ضابط بصحبة رجل آخر: سيدتي .. مرحبا ..

ــ وما من مجيب ..

ــ إن ابن أختك هذا ..

ــ ما إن عبث المسمى في مخيِّلتها حتى سطع النور برّاقًا من مقلتيها: ابن أختي .. أين هو؟

ــ هنا ..

ــ أين؟ونهضت تبحث عنه كمن يبحث عن تائهٍ لـه تاه .. صدَّها الضابط: عذرا سيدتي، ولكني الضابط الموكل بجلبه .. ابن أختك متهم بعملية نصب كبيرة وقد حُكم عليه بعشر سنوات .. إن كنت قادرة على دفع غرامته وقدرها سبعون ألف دولار حينها سيخفَّف عنه الحكم إلى عشرة أيام للحق العام من ثمَّ سيصبح حُرًّا بعدها ..

ــ تذبذبت نغمة فرحها التي كان الشوق يطرب لها .. شوقها الذي أضناه طول الانتظار: ليس الخطأ خطؤك بني .. أنا من تركك للضياع .. لا تزال صغيرًا وأنا التي ظننت أنّك قادر .. لقد دلَّلتك كثيرًا لم أوجِّهك جيدا .. خذلتك عدة مرات وها أنا ذا أخذلك مُجدَّدًا .. تهالكت لولا أن أحدهم التقطها: سيدتي هل أنت بخير؟

ــ لا أملك ما تطلب .. بدموعٍ تجري وأطرافٍ ترتجف وطرفٍ شاردٍ نحو عالمٍ ليس بأسوأ من عالمها ..

ــ بل تملكين ..

ـ كيف؟

ـ لقد أحصينا مُمتلكاتك .. فبالإضافة إلى البيت الذي لم يعد من حقِّك، فهناك أرض خلَّفها لك أحد أقربائك تبلغ قيمتها مئة ألف دولار .. المشتري هنا وبياناتُك لدي .. لسنا بحاجة إلا لتوقيعك .. سيخرج حالما تنتهي عقوبته المخفَّفة وسيُرصد بقية المبلغ في حسابك .. فما رأيك؟

ـ وماذا عساها أن تقول .. قالت والبشرى قد أضفت على سحنتها امرأة جديدة: أقبل .. شرط أن تتركوني أتحدَّث إليه قليلا ..

ـ حسنا، ولكن بعد توقيعك ..

ـ وقَّعت حالا .. دنا منها .. ضمَّته إليها .. قبَّلته .. مرَّغت وجنتيْه بدموعها .. روت ظمأها: لِمَ قَبِلْتِ؟

ـ لأني ..... لأني ..... لأني ..... هل سمعتني .. لأني ..... ولأجل ذلك أفعل المستحيل ..

ـ آسف خالتي ..

ـ لا تتأسف .. فقط عُد إليْ .. سنبدأ معًا حياة جديدة .. سأصنع منك رجلا جديدًا، فقط عُد إليّ ولا ترحل مُجدَّدًا .. عانقته طويلا وبالكاد انتزعوه منها وقبل أن يُغادر استأذنها باستعادة منديله الذي كان مركونًا إلى جانبها كذكرى منه تعبق برائحته .. خرجوا جميعا، وبعد دقائق ولجت ممرضة هي

للخالة أختٌ وصديقة .. قالت تروي العجب: قبل ربع ساعة تقريبًا وقبل أن أخرج بلحظات نفذ إلى المبنى شاب مُكبَّل يجرُّه ضابط بصحبة رجل آخر .. التقيْتُهم لحظة خروجهم .. لم يكن الشاب مُكبلا، كان يضحك فرحًا والضابط قد تأبَّط عنقه .. قال أحدهم .. لقد أصبحنا أثرياء ..

ــ أيهم تقصدين؟

ــ الشابُ المُكبَّل ..

لغة غير مرئية (٢)

شجار عنيف .. كلمات نابية .. شكوك دامية .. غيرة قاتلة .. قطع أثاث تتطاير وجمهور يتفرَّج .. انتهى الشجار بأن قذفته خارج شقتها .. رطمته بحقيبته .. بعدد من ملابسه وأخيرا: خذ منديلك اللعين فهو لم يجلب لي سوى المصائب ثم أغلقت الباب في وجهه بشدة .. الهمهمات والهمسات والسخرية التي تناقلتها الضحكات استنفرت غضبه مُجدَّدًا .. جعل يصرخ فيهم حتى تبعثروا .. حاول تحطيم الباب بقبضتيْه والحقيقة تدلف إلى مسمعها نقية من بين شفتيْه: أخبريني لِمَ أفلست .. لِمَ سرقت وخدعت المخلوق الوحيد الذي كان يهتم لأمري؟ لأني ..... فعلت ذلك كلّه فقط .. لأني ..... ولكن .. يبدو أنَّ ذلك كلّه لم يكن كافيا .. لقد وجدتِ من تخدعينه غيري، ولكن .. هيهات هيهات .. لن يكون لك ذلك إلا بعد انقضاء أَجَلِ واحدٍ منّا .. أنا أو أنتِ .. كاد جذع الباب أن يُخلع لولا حُراس الأمن الذين حاصروه .. هدأ .. لملم أشياءه، لم يتبق لـه سوى منديلي الذي جعل يتأمّله، يتذكر لحظات جميلة جمعته مع شخص أحبَّه بصدق، كان آخرها ذلك العناق الطويل حين غلَّفته بعاطفتها الجيّاشة التي لم يشعر بها، اصطحبوه إلى المركز وهناك أخذوا عليه تعهُّدًا ألا يقترب منها ثم أطلقوا

سراحه .. حمل متاعه .. سوء حظِّه ورداءة حاله .. بائسا يرغب بشدة نسيان ما جرى .. أن يُخدع على يد المرأة الوحيدة التي أحب .. توجَّه نحو منطقة مهجورة .. ابتاع قنينتيْ ويسكي خبَّأهما جيِّدا، وبما تبقى لـه من دولارات استقل فيها القطار إلى طرف المدينة، حيث سيمكث لدى صديقٍ لـه يقطن شقة موحشة في الطابق الأخير من بناية مُهترئة مُكتظة .. طال انتظاره لباب المصعد أن يُفتح، وأثناء ذلك تجمهر حوله مجموعة من الآسيويين .. فُتح الباب الذي كان يُخبِّئ خلفه فتاة ذات وجه بريء .. كانت تهم بالخروج عندما اندفعوا ناحيتها .. حُشرت في الزاوية حتى إذا ما توقَّف الراصد عند الطابق الحادي عشر خرجوا كما دخلوا لم يتبق إلا .. سِواهُ وسِواها .. سقطت على الأرض فأسرع إليها .. أُغلق الباب أتوماتيكيا استعدادا للانتقال إلى الطابق التالي المُشار إليه .. حاول إيقاظها دون جدوى فلا ماء ولا عطر سيُنجيها .. إنها تتنفَّس ببطء وصعوبة .. إنها بحاجة ماسة إلى جهاز يُنعش رئتيها .. حاول إيقاف المصعد .. توقَّف من تلقاء نفسه .. لقد تعطَّل .. هرع إلى الهاتف الذي لا يعمل .. طرق الباب ونادى حتى بحَّ صوته .. البناية المُكتظة من كانت مُكتظة باتت شبه خالية .. وحارس البناية كان قد قدَّم استقالته منذ مدة والليل قد ألقى أستاره، فما النفع إذن من طاقة مهدورة في آلية مُعطَّلة .. جلس يفتكر في حاله وحالها .. دنا منها: سيدتي ..

هل تسمعينني؟ لا تستسلمي ستصل النجدة قريبًا .. ملامح وجهها المُقاربة لملامح وجه حبيبته جعلت أطراف أنامله تتعدّى الحدود نحو خصلات شعرها المتناثرة أعلى جبينها .. داعبتها لثوان همَّ بعدها بتقبيلها لولا أنَّه دفع بجثته نحو الزاوية البعيدة .. خشيَ على نفسها من نفسه الأمّارة بالسوء فأخرج قنينتيْ الويسكي وجعل يتجرَّعهما سريعًا يريد الهروب .. أن يقع هو الآخر على الأرض .. نائمًا كان أم مغشيًا عليه ..

ألم تعلم وأنت السيِّد في هذا المجال ..

أنَّ المُسكر ما إن يبلُغ في المرء .. مُبتغاه ..

حتى ينال مُراده ..

إلى الجسد يُنكر عليه صحته ..

إلى القلب .. يتّهمه ويثير ظنونه ..

إلى الخيال .. عابثًا فيه ..

يحيل الصحراء القاحلة إلى مروج خضراء ..

يزيِّنها بالشظايا ..

ناثرًا أوثانه ..

من دون مبالاة ..

كانت لا تزال قابعة في ردهتها الضيقة حينما شعرت بالاختناق، بل بخوفها يتصاعد إثر اقتراب ساكن مجهول يجوب الردهات باحثًا عنها، يزأر، ذو ظلال حمراء وجدران ملتهبة امتدت ألسنتها وطغت ظلالها مع اندفاعه المُتدفق نحوها .. إنه يقترب .. يقترب أكثر .. لقد وجدها .. يكاد يفتك بها لولا أنّها استيقظت .. استيقظت مذعورة تتنفَّسُ الصُعداء، تتلفَّتُ حولها .. كان هناك في الزاوية البعيدة عنها مُستلق على ظهره بجوار قنانٍ فارغة .. تفقَّدت أشياءها، ملابسها .. كُلٌّ على حاله .. انكمشت حول نفسها بعيدًا تدعو القدير للباب أن يُفتح .. دقائق .. انطلقت كالبرق بعدها.

لم تُخبر أيّا من أفراد عائلتها ما حدث وهي الوحيدة بين سبعة رجال .. اختلقت لهم أسباب واهية حتى إذا ما مرّت الأيام ومن دون سابق إنذار تقيَّأت أمامهم مرة تلو المرة عدة مرّات ممّا استدعى قلقهم وأثار شكوكهم من جديد وعليه أرغموها على إجراء فحص طبي اكتشفوا من خلاله أنها حامل .. أوشكوا على قتلها فاضطرت لإخبارهم حقيقة ما جرى .. منهم من تعاطف معها مع رقة دمعها ومنهم من جرّها خلفه جرًّا .. يبحث عنه .. تزويجها إيّاه من تدَّعيه .. يريد إنهاء هذا العار .. شاءت أم أبى .. كاذبة كانت أم كان صادقا .. دلَّتهم على عنوانه الذي التقطته صُدفة أثناء بحثها في حقيبته، إن كان قد سرق شيئًا يخصّها .. توجهوا نحو شقته التي طُرد منها

ولّما لم يجدوه اصطحبتهم إلى البناية حيث وقعت الحادثة .. برعونة وهمجية نفذوا إلى الشقق كلِّها وهي معهم تتصفَّح وجوههم .. كان هناك مُستلق على الأريكة حينما أخذوه على حين غرة .. لم يستمعوا لـه ولم يهتموا لأمره .. أرغموه على الزواج بها، فهم شِدادٌ غِلاظٌ ذوو نفوذ وسيطرة مُحكمة، ولكي لا يفلت منهم ألزموه بمؤخر صداقٍ قدره خمسمئة ألف دولار ومع التهديد والوعيد .. أطبق فمه ..

عندما اجتمعا معًا قالت تكشف لـه عن وجه آخر غير الذي كنا نظن: كي تكون على بينة، فأنت لم تمسّني قط، وعليه فالطفل كما قُلْتْ .. ليس طفلك .. لقد اختلقت القصة كاملة أعانني عليها ضعفك وغباؤك .. إنه طفل الرجل الذي أُحب ولكنه متزوج من أخرى وحتى يملك الشجاعة ويطلِّقها فستبقى معي كسترٍ يسترني حتى يحين الوقت .. لن ينفعك الإنكار .. لن يصدّقك أحد .. فلا تحاول ..

ــ أيتها الملعونة .. سأقتلك ..

ــ افعل وستلحق بي مباشرة ..

بعد سنتيْن وفي ساحة خضراء مفتوحة رآها من بعيد .. اقترب منها توقَّف عندها وبصوت مُنكسر سألها: كيف حالك خالتي؟

ــ التفتت إليه .. تنظر في عيْنيْه مباشرة .. إنها تُبصره الآن والفضل في ذلك يعود إلى الجراح الذي بعونٍ من الله أعاد إليها بصرها .. انتشلها من الحُطام الذي هي فيه .. تزَّوجها ورحل بها إلى عالمه الذي تربّعت فوقه: بخير .. ثمَّ صدَّت عنه ..

ــ ليس من حقِّه أن يسألها لم كُلُّ هذا الفتور واللامبالاة: إنه طفلي .. بغُصَّة في فمه ..

ــ لَمْ تهتم لأمره ونادت على طفلتها: هيا سنرحل الآن ..

ــ لِمَ؟ لا يزال الوقت مُبكرا أمّاه .. أريد الاستمرار في اللعب ..

ــ سنعود لاحقًا .. أعدك ..

ــ خالتي .. آسف .. ولكنها كانت قد ابتعدت ..

هو .. لم يَرَ حجم عاطفتها ..

هي .. لم تَرَ خداعه آتيًا ..

مُشتاق إلى عاطفتها مُكتفية من خداعه ..

كلمة واحدة كان بودِّه سماعُها ..

إلا أنَّها أصبحت مَنسيَّة مَكسيَّة بالرماد ..

أُختزلت حروفها في كلمة واحدة ..

الوداع ..

الشباك المنكوب

لقاءٌ فاتر لم ينل منه بطائل عرَّج من بعده على السوق .. استبدل المنديل بعلبة سجائر .. لقد تخلّى عن ذكرياتٍ جميلة، فما المرجو منها وقد تنصَّل منها الطرف الآخر، كما أنَّها ذكرياتٌ تحمل بين طياتها صفحات سوداء نُقشت حروفها بيد عاهرة خدعته وشرَّدته ..لم يرغب بمزيد من الألم ففعل ما فعل .. إلا أنَّ منديلي لم يمكث طويلا سرعان ما وقع بين يديْ عروسٍ تستعد الليلة لزفافها .. ابتاعته بثمن بخس .. لم يقِّدر البائع قيمته الحقيقية بينما قدَّرت هي .. رموزه العاطفية .. شكله الانسيابي وبريقه الذي أضفى عند ضفتيْ مُقلتيها أسرار سِحْرٍ أبدي .. توجَّهت به حالا إلى المصبغة وبعد ساعة استلمته جديدًا من جديد .. عطَّرته .. خبَّأته داخل علبة بلون العنب الأحمر القاني تزيِّنها مجموعة متناثرة من الفراشات والزهور، ثمَّ أحكمت إغلاقها بعقدة بيضاء وقلب ذهبي في المنتصف تماما كالخاتم الذي ترتديه .. تتأمَّله من حين إلى حين.

زواج تقليدي إلا أنها لم تسمح له بالتقدُّم لخطبتها إلا بعد ما سمعته عنه .. إنه .. رومانسي حالم .. يكتب القصص ويرويها .. ولأجل تلك الفكرة التي لطالما عانقتها ألغت مشاريعها المستقبلية .. التقت به ضمن

جلسة شرعية .. وجه عاشق وصوت شاعر .. وهي إلى جانبه داخل إطار وسط قلبها الذي تشبَّث بتلابيبه لا ينتزعها منه نازع ..لقد أسرها وهي الآن تنتظر بفارغ الصبر أن يفُك أسرها بما في جعبته من قصص وروايات.

غادر العروسان ساحة العرس مخلِّفين وراءهم الضيوف مُستبشرين مُبتهجين .. كانت تتوقَّع منه أن يأخذها إلى فندق ذي خمس نجوم، وبدلا من ذلك اصطحبها مباشرة إلى منزله .. لم يفتح لها الباب .. ولج إلى الداخل وبعد لحظات أطل: هيا .. ماذا تنتظرين هيا .. خرجت .. أغلقت باب السيارة ثمَّ خلفه .. صعد الدرجات، فتوقَّفت، كانت تتأمَّل منه أن يحملها بين ذراعيه، أن يرخيها فوق سرير مكسوٍّ بالزهور وسط غرفة تعبق بأريج الشموع التي تختلج خجلا قبل أن تحمرَّ خجلا .. لم يحملها بين ذراعيه وتبعت صوته إلى الغرفة التي لا تمتُّ بصلة لأي شيءٍ ممّا توقَّعت .. جلست وجلس بجانبها .. صَمْتٌ لثوانٍ ثُمَّ وبتأفُّفٍ قال: بالله عليك ما نفع هذا الإكليل الذي يغطي وجهك وكأنّي أراك للمرة الأولى .. أوف .. عادات سخيفة وتقليد أعمى .. أبعده برعونة وبسخرية أردف: آه .. إنه أنتِ .. كيف لم أعرفك .. أشش .. هزَّ رأسه مُمتعضًا ثُمَّ هَمَّ بتقبيلها فابتعدت .. كانت تتوقَّع منه حديثًا بينهما تتداوله النجوم لا تَمَلُّ منه حتى تَمَلْ .. إلا أن النجوم لم تكن هناك تلك الأمسية .. لقد سمحت لليل البهيم أن يتغشّاها

.. علِمت النجوم .. فتراجعت .. حاول مرة أخرى ليجد منها ما كان منذ قليل: ما بك .. مالذي أصابك .. هل أنتِ خائفة فهزَّت رأسها: حقًّا خائفة فأومأت لـه: إذن، فلِمَ تزوجتِني طفلتي الغالية .. هل أرغمك أحد؟

ــ نفت بهمهمة خفيَّة ..

ــ إذن، فلِمَ تزوجتِني؟ وعندما لم تجبه أجاب بالنيابة عنها: طفلتي العزيزة .. الزواج ليس نزهة .. كان الأجدر بك البقاء مع دُماك إن كنت لا تستطيعين تحمُّل تبعات ما أقدمتِ عليه .. يا إلهي وأنا الذي كُنت أترقَّب .. فتح زر قُمِّ ردائه ثُمَّ جعل يدعك بشدة أنفه وجبينه جيئةً وذهابا[1] يحاول التخلص من شحنات سلبية هو في غنى عنها: هل أنت بحاجة إلى بعض الوقت؟

ــ .....

ــ فصرخ بها يُعيد السؤال ذاته ..

ــ أجل، بارتباك لم يُغادرها وبخوف يَستعر .. خلع اللحاف من تحتها بهمجية وخلد إلى النوم .. أسندت ظهرها إلى جانب السرير ترمق الشباك .. لكُلِّ فتاةٍ منّا .. شُبّاكها الخاص بها ..

---

(١) جيئة وذهابا: صعودًا ونزولا

التصميم ذاته ولكن بمفتاح خاص ..

كلّما تزَّمت الواقع فارضًا لعناته ..

فتحت الشباك على مصراعيه ..

إما أن تُبرز أجنحتها البيضاء .. ترفرف هناك ..

وإما ..

أن تلتقط بيدها إحدى القطع ..

تشكِّلها أنّى شاءت وكيفما أرادت ..

جعلت ترمق بنظرات شاردة شبّاكها المنكوب ..

تناثر الريش ..

وتحطَّمت القطع ..

أين من كنت أظن ..

يبدو أني خُدعت ..

ــ عند الظهر رنَّ جرس الهاتف .. كانت نائمة وكذلك هو: ألو ..

ــ كيف حالك بني، أنا خالتك، ثمَّ بدأت تعبِّر عن فرحتها بأسلوبها الخاص ..

ــ خذيه .. إنه لك .. بحث عنها ليجدها بجوارهِ عند طرف السرير : هيه .. هيه .. استيقظت .. إنها والدتك ..

ــ أمسكت السماعة .. تستمع وتجيب إجابات مُقتضبة .. لم تستسلم لفكرة البارحة، غفت بعد أن أقنعت نفسها بأن رجل البارحة لن يكون اليوم .. سيوقظها بقبلة وبزهرة تُداعب وجنتيْها .. كيف وقد أيقظها كمن يوقظ أحد صَحْبِه .. سكنت الفكرة عشَّها واطمأنت وانحسرت محاولاتها أمام صرخاته .. ودَّعت والدتها وأسرعت إليه .. ناولها ملابسه فهو يخشى عليها من أن تقع على أرضية الحمام .. وعندما همَّ بخلع ملابسه الداخلية .. ارتجفت .. استدارت وأغلقت عيْنيْها بإحكام: خذي .. خذي.. والآن ضعيها في السلة إلى جانب التلفاز ثمَّ عودي .. خرجت ولم تعد .. هدَّدها إن لم تعد فإنه سيخرج إليها عاريًا .. جزعت .. ألقت الملابس حيث أمر ومن ثمَّ إليه مُنكِّسة رأسها كي لا تراه: وأخيرا .. تعالي .. ادعكي لي ظهري جيِّدا فأنا لم أفعل منذ مدة .. اقتربت من المغطس .. شدَّها من ذراعها: هيا .. ما بُالك تبدين كالسلحفاة .. انتهت: انتظري .. ألا ترغبين بمشاركتي .. كلماتُه المرعبة جعلتها تجري خارجًا .. تأزَّر منشفته .. كانت حينها جالسة عند الطرف البعيد من المكان حيث هُوَ .. مُنزوية بأفكارها، بذعرها وتوترها عندما سألها: هل أنت مُستعدة الآن؟ شخص بصرها نحو المُقبل بخطى سريعة إليها .. حاولت الهرب، فحشرها في الزاوية ..

لطالما تخيَّلت تلك اللحظة ..

أن تلتصق بالجدار .. أن تكون بين ذراعيه ..

أن يُطيل النظر إليها .. أن ينسى أمر شفتيه ..

أن يتحدَّث شوقُه سِرًّا .. أن يُفتضح سِرُّ عينيه ..

أن يدنو منها رُويدًا رُويدا ..

أن تحمرَّ خجلا ..

أن تتصاعد نبضاتها ..

ألا تجد حلا فتستسلم إليه ..

لم يُطل النظر إليها .. ولم ينس أمر شفتيه ..

لم يتحدَّث شوقُه سِرًّا .. ولم يُفتضح سِرُّ عينيه ..

لم يدنُ منها .. رُويدًا رُويدا ..

لم تحمرَّ خجلا ..

تتصاعد نبضاتها .. أجل ..

أمام اندفاعه فجلست أرضًا ..

لم يزل مُستندا بكفيَّه بأنفاس تتتابع على عجل كما هي حتى ..

رطم الجدار بقبضته .. ودون أن ينبس ببنت شفة .. ارتدى ملابسه وخرج .. ما إن اطمأنت لرحيله حتى هرعت إلى الباب فأوصدته ثمَّ إلى السماعة .. اتصلت على قريباتها تتحقَّق منهن حقيقة حديثهن عنه بشكل لا

يبعث على الريبة .. أكَّدوا لها صحة ما قالوا .. لم يَرَوْ ذلك بأمِّ أعينهم، بل هذا ما تناقلته أسماعهم .. جلست لساعات تقلِّب الأمور وتبحث له عن مسوِّغ لأفعاله .. انتصبت أمام المرآة .. ثوب زفافها البالي .. شعرها المنكوش ومكياجها الذابل: "يبدو أنني من منحه الأسباب كي لا يكون على سجيَّته" .. قررت منحه فرصة أخيرة .. وعند المساء عاد .. لم يعرِّج عليها، بل جلس في الأسفل يشاهد التلفاز يعبِّر بذلك عن ضيقه وامتعاضه .. نادته مرة ثُمَّ أخرى فاستدار .. تفاجأ بها .. شعرٌ مُسرَّح .. وجهٌ مُضيء .. جيبٌ معطَّر .. قوامٌ جذّابٌ يشتمله[1] روبٌ حريري قصير كشف عن ساقين برّاقتين، بل كشف عن أحجار بيضاء اكتنفتها ابتسامة عريضة تتَّسع كلَّما قلُصت المسافة بينهما .. بابتسامته العريضة مُشيرا بإصبعه إليها: نعم .. هذه هي المرأة من كنت أريد .. ما إن أوشكت جملته على الانتهاء حتى انتهى عند مبسمها ..

" ليس هكذا .. "[2]

ــ ابتعدت وقبل أن تتقلَّب ملامحه قالت: لنصعد إلى الأعلى ..

---

(١) مشتملا: متغطيا بكسائه

(١) استهجان خفي

ــ حسنًا .. أمسك يدها وجرَّها خلفه ..

" ليس هكذا .. "

وولج بها إلى غرفة تعبق برائحة الشموع بألوان الزهور المتناثرة قد أَنس بها المكان .. وطاولة زجاجية في المنتصف .. أطباق شهية وعلبة محكمة الإغلاق عند الطرف .. لم يكترث ..

" ليس هكذا .. "

ــ شدَّ على ساعديها وأدناها منه يُعيد الكرة فابتعدت: لنتناول الطعام أولا ..

ــ حسنا ولكنَّك لن تُفلتي مني بعدها .. أنهى طبقه حالا تناول مشروبه: هيا ..

" ليس هكذا .. "

أدني لها الكرسي .. اسمح لها بالجلوس ..

اجلس أمامها وأطعمها بيدك ..

تغزَّل بجمالها تحت ضوء الشمعة ..

اخجل لخجلها ثم انهض ..

أخرج عقدا من جيبك .. ألبسها إياه .. ثمَّ اتكأ أمامها ..

داعب .. خطوط يديها .. .. اجعل أنفاسك تلامس راحتيها ..

داعب عنقها .. خصلات شعرها .. وجنتيها ثمَّ إليها ..

لا تُبعد ناظريك عنها بل منها وإليها ..

اجعلها تشعر برغبتك ..

بأنها أميرة قلبك ..

قل كلمة واحدة .. اجعلها صادقة:" أحبك " ثم ادنُ منها ..

إنها مستعدة الآن وقد آن أوان تلك القُبلة التي طال انتظارها ..

لقد تبرأت منه ..

رومانسيته التي لم تكن والشاعرية التي ولَّت مُدبرة وكلمات الحُبِّ التي لم ينطق بها عندما نهض: هيّا، ولمّا لم تنهض أرغمها .. نزع روبها، فلمّا رأى ثوبها الذي فضح مفاتنها لم يتمالك نفسه .. حملها .. قذفها فوق السرير وكأنّها قطعة أثاث مُستعملة ثُمَّ وكالفريسة انقض عليها .. مُستسلما لفظاظته مُنقادًا بلا إرشاد لرعونته .. حاول إتيانها بكل الطرق وهي .. تحاول الفرار ..

ليس هكذا ..

أن تُصبح بربريًّا .. حبيس غرائزك الحيوانية ..

أن تعميك شهواتك عن رؤية المخلوق الضعيف الذي يحاول جاهدًا إرضاء كومة رغباتك ..

ليس هكذا ..

لستُ من تظن ..

لستُ ضالتك ..

صرخت به:كفى .. كفى .. ليس هكذا فتوقَّف: قالوا لي بأنك رومانسي حالم .. يكتب القصص ويرويها .. لقد رأيت ذلك في وجهك وأحسسته في صوتك .. لقد ظننت بأني ..... ولذلك تزوَّجتك .. قالت ذلك وهي تنشج بالبكاء ..

ــ إجابة متأخرة لسؤال طُرح منذ البداية .. ابتعد أكثر: من أخبرك ذلك؟

ــ قريباتي ..

ــ يبدو أنهن صدقن تلك الإشاعات التي كانت تدور حولي بسبب مظهري .. يبدو أنّ ما جرى بيننا لم يكن سوى مجرد .. سوء فهم .. فأنت لست المرأة التي أُريد كما أنني لست من تظنين .. فأنا لا أثق بتلك الأمور التي تؤمنين بها .. هدوؤه جلب لها السكينة .. ستر صدره العاري: حسنًا إذن .. أنتِ .. طالق .. طالق .. طالق، ثُمَّ غادر ..

لقد كان تصرفا مُتسرعا منه .. ولم العجب! فهو قرار صادر من شخص الزواج والطلاق عنده سيان .. كلعبة ورق خسرها، غير نادمٍ، بإمكانه تكرارها ..

و بالرغم من كونها عروسًا جديدة تطلَّقت حديثا ستدور الألسن حتمًا حولها .. فهي لم تكترث ..

ففراقه هو الهَمُّ الثقيل الذي انزاح عن كاهلها ..

شعرت بروحها تعود ..

بابتسامتها تعود ..

وبشباكها المنكوب يُفتح من جديد ..

ربما أنها فقدت الأمل بالعثور على فتى أحلامها ..

إلا أنها تُفضِّل ..

أن تبقى حالمة على ألا تكون فاقدة للإحساس ..

طائر الفلامنغو

جهزَّت متاعها .. حملت حقيبتها .. همَّت بالخروج حينما استوقفتها عُلبة ملونة وسط مائدة أصبحت خالية .. استخرجته من النعيم الذي كان مُترفّلا فوقه إلى الواقع الذي يضمُّ مُجبرا بين جوانبه كُلَّ الاحتمالات: لولا كونك تذكِّرني بلحظة مُرَّة لكنت أقرب الأشياء إلى قلبي .. لم تقذفه على عجل هكذا، بل جعلت تتأمّله لثوانٍ مع غُصَّةٍ وإحساسٍ بالندم حتى إذا ما شعرت باندفاع الريح .. بصوتها تُناديه وبرغبتِه في اللحاق بِركابها .. أرخت أناملها فارتمى بين أحضانها.

ظلَّت الريح تجري به من مكان إلى مكان .. لم تهدأ لساعات .. ولم يزل معلَّقا بين الأرض والسماء حتى خفَّت حدَّتها لتُلقي به وسط طريق لا رقيب فيها ولا عتيد .. قُرب جثة لقِطَّةٍ مدهوسة والمركبات عن يمين وشمال .. لا أيادٍ تتخّطفه هذه المرة ولا رياح تُنقذه .. شاحنة ضخمة تندفع بقوة نحوه مُباشرة .. يبدو أنَّه هو الآخر سيغدو دون ملامح أو معالم تُميِّزه .. سيارة شرطة تبرز من الخلف تندفع أمامها بضعف قوتها .. اندفاعها الشديد حمل منديلي إلى بَرِّ الأمان .. إلى صحراء قاحلة لا شريد فيها ولا وريد.

أيام فوق الرمضاء .. وحيدا .. منبوذا اللهم إلا من تلك الدقائق الذهبية .. ويكأنَّها لو كان باستطاعتها أن تغطِّي الأرض بلونها ما استكانت .. من حين إلى حين .. يزحف جيش صغير بمؤازرة الريح التي تمدُّه بشيءٍ منها .. يغطّي بقعة .. بقعة تلو بقعة دون كلل أو ملل .. لم يتبق منه سوى الأطراف .. لحظات قليلة ويندثر فيها كلُّ شيء .. الذكريات .. القصص التي تلوتها وقلمي لن يكون له أي نفع .. قادمٌ .. لا أعلم من أين .. عينان رماديتان ولعاب يسيل وماشية تسير خلفه .. نثر الرمال عن ظهر منديلي .. قضمه بين فكَّيه وألقاه بين يديْ سيِّده الذي لم يُلق لـه بالا ليلقيه في سلة المهملات.

حرير لامع .. نقوش نادرة .. أموال بُذلت وأيادٍ عملت بإتقانٍ و .. سلة مهملات .. كائن من كان .. مُحالٌ أن يظل كما كان .. تراكمت الأوساخ فوقه .. دُفن عميقًا .. لم يعد قادرًا على التنفّس .. وتلك الأحاسيس الجميلة .. لم يعد باستطاعتها الوصول إليه بعد الآن، فمن سيراه وحاله على هذه الحال .. لابُدَّ وينبذه ..

أتت الحاوية .. حملته والبقية .. عجنته ثم رمت به في أرض النفايات حيث كلُّ شيء هناك هالك، ففي نهاية اليوم .. لابُدَّ للمحرقة أن تشبع .. أن تؤدي عملها اليسير على أكمل وجه.

كان وشيكًا قريبًا حينما أتت الريح التي لطالما تلاعبت به .. حملته بعيدًا خارج منطقة الهلاك، ولكن إلى أين؟ إلى دهاليز مُظلمة .. إلى أزقة موحشة ملأى بالجرذان .. بالنفايات المتناثرة بالرائحة النتنة .. إلى أماكن .. منسية .. مطموسة .. لا وجود لها ولا تحمل عنوان .. احتوى منديلي وجه مُتشرِّد مُستلق على الأرض، كان يتحدَّث بصوت مسموع إلى طائر فلامنغو منحوت يتمايل بين مجموع أنامله ..

لم يعد منديلي قابلا للنقد .. للنقاش أو العرض ..

لقد فقد روعته والرموز التي جعلت منه مُتفرِّدا ..

إنه في أرضه ..

وتلك اليد الملوثة .. هي اليد الحقيقَة به ..

وبالفعل فقد خبَّأه داخل جيبه .. ثمَّ غفا لساعات وقُبيل المساء .. استقبل الزقاق امرأة بصحبة طفلتها التي لم تبلغ السادسة ورضيع بين ذراعيها .. يبدو عليها الخوف والحذر .. اختبأت في الركن البعيد حيث لا تراها الأعين .. تركها في حالها وذهب هو في حاله في الطريق ذاتها التي يسلكها كُلَّ يوم بين أجناس البشر الذين يشاهدونه كُلَّ يوم .. مُتمسِّكين بالانطباع ذاته .. الهلع .. الشفقة والاشمئزاز هم أسياد ذلك المكان وهُوَ .. مُتشرِّد عليل .. أعرج ذو وجه محترق .. لم يَستحِ أن يخرج بهذا الشكل

فليس من المعقول أن يظلَّ مُختبئًا العمر بطولـه، وما جرى لـه لا حول لـه به ولا قوة .. لقد اعتاد على نظراتهم كما اعتادوا عليه .. وكثيرا ما تُمدّ لـه أيادي الإحسان إلا أنّه .. يرفضها .. يتجاهلها أو يُهدي ما أُهدي إليه إلى شخص آخر ..

كم هو غريب هذا المُتشرِّد ..

يتصنَّع عزة النفس وهو أحوج ما يكون إلى تلك النثرات المُضيئة التي تُلقى إليه.

توجَّه إلى بُحيرة نائية عند طرف المدينة .. أخرج المنديل .. دعكه بلطف يحاول جاهدا تحريره من الأوساخ التي علقت به .. لا يزال باهتًا إلا أنَّه يبدو أفضل من ذي قبل .. توجَّه بعد ذلك نحو الجسر العظيم الذي يربط بين مدينتين يبحث عن بقايا الطعام التي يخلِّفها بعض السوّاح عادة .. إلا أنّه لم يكن هناك الكثير، فمن أتوا قبله يبدو أنهم استحوذوا على كلِّ شيء .. جلس يتأمَّل البحر الكبير حينما باغتَتْه مركبة فخمة مسرعة كانت تهمُّ بالسقوط من أعلى الجسر لولا أنها انحرفت عن مسارها لتصطدم بعمود الإنارة .. أسرع إليه إلا أن صاحب المركبة المصدومة كان الأسرع .. جعل يتلمَّس جسده .. جروح بسيطة أصابته ..حاول تشغيلها فلم تعمل .. خرج يركلها .. حطَّم زجاجها .. فعل ذلك وهو يلعن الأيام التي مضت من

حياته .. الحاضر والمستقبل الذي لم يأت بعد .. نثر الزيت عليها .. حولـه وحولها ثمَّ ولج إلى الداخل وأشعل الفتيل .. استوقفه قائلا: إن مِتَّ فلا بأس، ولكن إن لم تمت فستصبح مثلي .. مُشوهًا لن تطيق رؤية وجهك في المرآة .. خشي على نفسه فألقى بجثته خارج المركبة التي تحوَّلت بعد ثوانٍ إلى ركام يشتعل .. لا زال يريد الخلاص ولكن كيف .. توجَّه نحو الجسر .. تسلَّق أعلاه .. يكاد يقفز لولا ذلك المُتكئ بقربه من اعترض طريقه مرة أخرى .. إنّه لا يُنظر إليه .. لا يُثنيه عن رغبته .. غير عابئ به يرنو ببصره نحو الأفق البعيد: هيه .. هلا ابتعدت .. فلا أريد لأحد أن يراني أفعل ما أفعل ..

ــ سيدي عذرا .. ولكني هنا قبلك وفي هذا المكان بالتحديد .. كنت أتأملَّ البحر الكبير قبل أن تأتي .. أفتكر في حالي .. مُتشرد .. لن يجد عملا بساقه المبتورة .. حُبًّا بوجهه المحترق .. لا عائلة تضمه ولا بيت يأويه ولا أنيس يواسيه .. أسباب تدعوني إلى الموت، ولكني لا أعلم لِمَ لم يخطر هذا الخاطر في بالي حتى الآن .. ربما أنني لم أملَّ رؤية هذا البحر الكبير بعد .. سأحزن حتمًا إن أنا فارقته .. لقد وجدت ملجأً لي .. سببًا يدعوني إلى الحياة من بين كُلّ الرفات الذي يحوم حولي .. دعني في حالي وانشغل أنت في حالك فلربما لديك أسباب أقوى من أسبابي .. جلس لدقائق ثم مضى ..

ناداه من بعيد: ما اسمك .. لم يجبه .. وأخيرا حضرت فرق الإنقاذ .. الإطفاء .. الشرطة وسيارة الإسعاف .. حاولوا ثنيه عمّا هو مُقدم عليه إلا أنه تجاهلهم، يتأمل البحر الكبير .. يستمع لصوت مَوْجِه ولمّا لم ينفع معه اللين لجؤوا إلى الإرغام فاستوقفهم .. هدَّأ من روعهم .. هبط بعدها من أعلى السور .. حقّقوا معه .. داووا جراحه وبعد ساعات كانوا قد غادروا جميعا أرض الحدث.

كانت السماء تُمطر حينما وصل إلى بقعته المتواضعة .. تذكَّر العائلة الجديدة فأطل .. لم يكن هناك سواها تحتضن أخاها الرضيع ولم تكن إلا ثوان حتى هوى على الأرض إثر ضربة على رأسه كادت تُفقده وعيه .. تتالت الضربات وهو يصدُّها بجسده حتى إذا ما أشبعته ضربًا نادت صغيرتها: هيا أسرعي قبل أن ينهض، فالمكان لم يعد آمنًا ..

ــ انتظري .. وأشار بيده: تلك العلبة الكرتونية هي بيتي .. قادني فضولي لمعرفة إن كنتم قد رحلتم أم لا ليس إلا، ثمَّ زحف مُتوجعًا نحو مسكنه.

استيقظ مُبكرا وكعادته جعل يتحدَّث إلى تمثاله الخشبي .. يُفضي له بمكنونات صدره .. بهمومه وغمومه إلا أنَّ همهمات عكَّرت عليه صفو

حديثه .. جعلته ينهض .. تقدَّم حذرًا .. إنها تشتكي إلى الأم جوعها والأم تطلب منها الصمت كي لا يُفتضح أمرها ..

ــ مِمَّ أنتِ خائفة؟

اختبأت الصغيرة خلف أمِّها التي ذُعرت لمشهدٍ رأته .. مسخ يتَّكأ على عكازين .. إنها المرة الأولى التي يريانِه بها على حقيقته فالظلام كان دامسًا حينها .. لم تُجبه في الحال إلا أنَّ صرخة سُمعت إثر جرذ سمين كان يحوم قريبًا من طفلتها من أطلقت الصرخة جعلها تنطق ببضع كلمات .. أسرع إليه .. طعنه بعكازه ثمَّ التفت إليها: لا تجيبي .. لا بأس .. ولكنه ليس بالمكان المناسب لك ولعائلتك .. انتقلي إلى مسكني .. إنه أكثر نظافة وأشدَّ أمنًا من هنا .. هيا .. ماذا تنتظرين؟

وهناك اندفعت الصغيرة نحو بقايا الطعام المُخبَّأ داخل كيس بلاستيكي .. اختطفه من يديْها فاختطفته من يده: إنه ليس طعاما صالحا للأكل ..

ــ الطفلة بجرأة مُتناسية أمر ذُعرها منه في سبيل لُقمة تملأ جوفها: ولكنك تأكله ..

ــ لقد اعتدت عليه .. اختطفه ثانية مُبعدا إياه: ألديكِ مال لشراء طعام جيِّد؟

ـــ لا ..

كان باستطاعته مدُّ يده للحصول على المال بسرعة وقد حاول إلا أنه سرعان ما تراجع .. توجَّه نحو المتجر .. توقَّف أمامه لدقائق ثمَّ دلف إلى الداخل .. ملأ سلَّته ببعض الحاجيات ثمَّ سأل المُحاسب الذي كان مُرتعبا مُرتابا مثل البقية: كم الحساب؟

ـــ ستون دولارًا ..

ـــ اسمع .. أنا الآن .. لا أملك هذا المبلغ ولكني أعدك .. بعد يومين سأسدِّده كاملا، فهّلا انتظرت؟

ـــ .....

ـــ يومان فقط ..

ـــ اممممم تعلم .. أنا مجرد عامل .. لست صاحب المكان ..

ـــ أعلم، ولكنها ليست لي .. إنها لأُناس في حاجة ماسّة إليها ..

ـــ أعتذر .. ولكنّها سياسة المحل ..

ـــ صمتٌ بشرر يتطاير من عيْنيْه: قُل لي .. هل ولجت إلى متجرك يوما .. هل أزعجتك .. هل سرقت منك شيئًا .. ألا أقابلك كل يوم بابتسامة .. آه .. أصبت .. ابتسامتي ليست خلابة .. وخصري ليس نحيلا .. كما أنّه .. بيني وبينك .. شكلي لا يوحي بالثقة .. لست من أولئك .. ذكرني بهم ..

امم .. نعم .. ذوو الأطقم السوداء .. الساعات الأنيقة .. البطاقات الزرقاء أو الشارات الذهبية .. ولكن أتعلم .. سواء وثقت بي أم لا .. لا يهم .. فتلك الحاجيات يجب أن تصل إلى محتاجيها بغض النظر عن شعورك .. وسواء رضيت أم أبيت .. بعد يومين سآتي لأسدِّد المبلغ كاملا .. حمل الحاجيات ليتفاجأ بالشرطة تحاصر المكان وتهدِّده .. التفت إليه .. كان يشير بإصبعه إليه: لست أنا من طلبهم .. من المُؤكد أنَّه شخص آخر فأنا أثق بك .. صدقني ..

ــ بصوت مُستنكر يلوم: ألم تسمع .. إنها ليست لي .. ليست لي .. إنها لأُناس في حاجة ماسّة إليها وقبل أن يضع حِمله جانبًا تقدَّمت سيدة مُسنة نوعًا ما .. دفعت عنه .. رجته أن يُبعد الشرطة .. فلمّا تأكدت من رحيلهم قدَّمت لـه بطاقة وطلبت منه أن يذهب إلى أحد الملاجئ، فهي تقدِّم المساعدة بالمجان: ما اسمك سيدتي؟

ــ اسمي مدوَّن أعلى البطاقة.

تناولوا الطعام وبعد أن خلدت الصغيرة إلى الراحة جلس يتحدَّث معها لبعض الوقت .. أخبرته قصتها كاملة: أنا غريبة عن هذه الديار .. هاربة من زوجي الذي يبيع أطفالي للمشاهير الذين يغدقون عليه بالجزيل من المال لقاء ذلك ..

ـ مُستغربًا مُقطِّبًا حاجبيْه ..

ـ نعم .. لا تستغرب ذلك فذلك صحيح ..

ـ ولكن .. لِمَ سَمِحتِ له بذلك؟

ـ تنهَّدت من ثمَّ أجابت: لأني .... سمحت له بذلك .. كان على وشك الدخول إلى السجن إلى أمد بعيد .. لقد كنت ساذجة .. خشيت ألا أراه فمنحته طفلي .. في المرة الثانية .. كان قد ظهر على حقيقته .. جشعا يتآكله الطمع فاغتصبه مني اغتصابا .. وفي الثالثة لم أتحمَّل فهربت ..

ـ وماذا عن أهلك؟

ـ كما قلت لك .. فأنا غريبة عن هذه الديار كما أن أهلي أُناس متواضعون جِدًّا لا طاقة لهم به وقد أصبح ذا نفوذ الآن ..

ـ أخبري الشرطة إذن ..

ـ وماذا بعد ذلك .. القضاء والمحاكم التي ستمنحه حق الحضانة كاملا، فكما ترى أصبحت كالمتشردة .. لا عمل ولا مأوى ..

ـ هنا دفع إليها بالبطاقة التي حصل عليها مُؤخرا: إنها ملاجئ عامة تقدم المساعدة بالمجان ..

ـ لابُد وأنَّه سيبحث في كُلِّ مكان ..خصوصا وأنَّ عليه تسليم الطفل بعد أيام ..

ـ ماذا ستفعلين؟

ـ لا أملك سوى الهرب والانتقال من مكانٍ إلى مكان ..

ـ ولكنك بحاجة إلى رعاية صحية وطعام جيد ..

ـ لابأس .. سأتدبَّر أمري ..

ـ كان بودي مساعدتك .. ولكن كما ترين فحالي لا تسرُّ الناظرين ..

ـ لا عليك .. لقد فعلت الكثير .. شكرا وأعتذر عمّا بدر مني ..

ومع هذا فلا يزال الشعور بالحسرة والعجز يؤنِّبه.

ـ هيه استيقظ ..

ـ من أنت؟

ـ أنا من تركته يتأمَّل البحر الكبير ثم رحلت ..

ـ ألم تمت بعد ..

ـ لا .. لم أمت بعد .. لقد وجدت سببا يدعوني إلى الحياة ..

ـ وما هو؟

ـ إنه أنت .. لقد أنقذتني وحان دوري لإنقاذك .. سأصنع منك رجلا جديدا .. لقد أصبحت صديقي الآن ..

ـ شكرا .. ولكني مُرتاح هكذا وأستطيع تدبُّر أمري ..

ــ على من تكذب .. لست أعمى وكذاك أنت .. انظر حولك وسترى بأنك تعيش الكذبة كل يوم مع إيمان كامل بأنها الجنة التي يسعى إليها الكُل .. هيا قُم .. فجدولي مزدحم .. عليَّ أن أذهب إلى البنك لأسحب بعض الكاش من ثَمَّ سنتوجه نحو المتجر ثُمَّ الفندق وأماكن أخرى كثيرة .. هيا .. لا تعطِّلني ..

ــ وإن طلبت منك الرحيل وتركي ..

ــ حتمًا سأعود .. مرة أُخرى وأُخرى وأُخرى .. أنت دافعي للبقاء على قيد الحياة فكيف لي ألا أعود ..

ــ حسنا إذن .. إن كُنت أنا هذا الدافع .. فافعل بي ما تريد صديقي .. نهضا معًا .. استأذنها باصطحاب الصغيرة معه – والتي كانت قد اعتادت عليه كثيرا في الأيام القليلة التي مضت – لبعض الوقت فقبلت مع توخي الحذر .. وعند آلة السحب توقّفوا جميعا .. وشوش في أذنها كلمات .. وما إن أخرج ألفي دولار حتى رفعها إليه يحزُّ رقبتها بسكين كانت بحوزته: سلِّمها النقود حالا ..

ــ ماذا تفعل .. إنها لأجلك .. خُذها وافعل بها ما تريد ..

ــ كفاك حديثًا ابتعد وإلا سال دمها .. تجمهر الناس حولهم كما أحاط بهم شرطة البنك ..

سلَّمها المبلغ كاملا .. ابتعد بها نحو منفذ خالٍ .. عضَّت يده على حين غفلة منه وهربت بالنقود .. تركها شاهرًا السلاح في وجه الكُل .. الناس .. الشرطة وصاحبه الذي تعرَّف عليه للتَّو .. سرعان ما استسلم .. قبضوا عليه .. جرّوه إلى داخل المركبة وقبل ذلك أتى قد ثارت ثورته .. مسكه من تلابيبه: أيها الأحمق .. لِمَ فعلت ذلك؟ لقد وثقت بك ..

فما كان من أمره إلا أنه .. ابتسم له.

بعد ثلاثة أشهر استلم صاحبه المغدور به صندوقًا به رسالة كان فحواها:

((مرحبا .. ها نحن نلتقي مجددا ..

سألتني يوما .. أيها الأحمق .. لم فعلت ذلك؟

كنت عزيز نفس ذات يوم .. ذا عائلة .. ذا مكانة وسمعة طيبة .. ثم جرى لي ما جرى (لا داعي لذكر التفاصيل) .. وقد كان لي أصدقاء كثر .. جيدون ومخلصون إلا أني تخليت عنهم خشية أن أرى ما أخشاه في أعينهم .. وإن حاولوا جاهدين .. إلا أنه يبقى شيء منها في الداخل ..

أنت الآن صديقي .. ولأني فعلت ما فعلت ..

كي لا أرى نظرة الإشفاق في عينيك ..

كي لا أشفق على حالي فأشعر بالألم ..

بالألم الذي لم أُعد أشعر به مذ رضيت بقدري وقنِعت ..

قلت لك أستطيع تدبُّر أمري وقد فعلت ..

ما حدث كان خطة مرتبة بيني وبينها .. أن تهرب بالمال الذي هي في حاجة إليه .. وأن أبتعد عنك قدر الإمكان ..

ملاحظة: بالإضافة إلى هذه الرسالة ستجد منحوتا خشبيا هو أغلى ما لدي بل هو جلُّ ما أملك .. هو الذكرى المتبقية لأيام جميلة مضت .. ما كنت لأبيعه بأي ثمن إلا أني مضطر لإعطائك إياه مقابل ما استعرته منك من مال ..

ملاحظة أخرى: إن أخبروك أن سبب وفاتي هو المرض العضال الذي كنت أصارعه فلا تصدِّقهم .. إنه بسبب الطعام الجيد الجديد الذي لم أعتد تناوله ..

صديقي .. لا تستعجل الموت فهو قادم لا محالة ..

اعتن بنفسك وابحث عن أسباب أخرى تدعوك إلى الحياة غيري .. فكما ترى .. لقد رحلت ..

صديقك المخلص / المتشرِّد))

أيها الأحمق .. ومن قال بأني أُشفق عليك ..

بل أنا .. من يستحق الشفقة ..

نهاية الرحلة

هربت بالمال ناحية أمها .. لم تجدها حيث تركتها .. أخذت تبحث عنها هلِعة .. كانت هناك تصرخ، تستنجد بمن حولها أن يعيدوا طفلها من يد سارقيه .. هي خلفهم وهم يدفعونها لا قدرة لأحد على صدِّهم فهم مُسلَّحون حتى إذا ما لاحت الشرطة لهم من بعيد دفعوه إلى أحد المارة وانطلقوا نحو مركبتهم المركونة في الناحية الأخرى من الطريق وقبل أن تصل الشرطة كانت قد التقطت صغيرها وهربت .. لحقت بها طفلتها وهكذا من مكان إلى مكان ومن ممر إلى آخر حتى استقروا في بُقعة مُظلمة بعيدا عن الأنظار .. تفقَّدت حال طفلتها، سألتها أين عمُّها، فأجابتها أنّه أعطاها المال ولا تعلم مالذي جرى لـه بعدها .. احتضنتها .. ضمَّتها بشدة إلى صدرها .. كانت تعبة فغفت لساعات لتستيقظ فجأة على أصواتهم .. لقد داهموا المكان ولن تُفلت هذه المرة من قبضتهم .. اختطفوه ثانية .. رطموها بالجدار .. صرخت فيهم: سأدفع لكم ضعف ما سيدفعه لكم شرط أن تعيدوه إليّ ثُمَّ أرتهم البرهان الذي حاولوا أخذه عُنوة فهدَّدتهم بأنّها ستمزِّق أمامهم .. غذاء أرواحهم وقاتل ضمائرهم .. تراجعوا .. وضعوه منتصف الطريق .. حملته .. ابتعدت كفاية حينها نثرت تلك

الأوراق اللعينة القابلة للاحتراق في الهواء وهربت .. تركوها منشغلين بجمع ما تناثر .. ذهبت إلى أحد الملاجئ التي أخبرها عنها .. استقرَّت هناك لبعض الوقت إلا أنها سُرعان ما غادرت لقد وجدوها ثانية .. يومان مُتتابعان مَشيًا على الاقدام .. أفواه جائعة .. أجساد مرهقة وطفل بحاجة إلى رعاية صحية .. لم تستطع متابعة المسير فاستلقت على الأرض داخل دهليز قُرب طريق لم تكن تعلم أنّها طريق تكتنفُها المومسات .. أتت إحداهن تسألها عمّا بها ..

ـــ إني جائعة ..

ـــ هل تريدين بعض المال؟

ـــ نعم ..

ـــ خذي فنهرتها زميلتها: لا تكوني طيبة هكذا ألم تتعبي للحصول على هذا المال .. إن كانت تُريده حقا فعليها أن تسعى إليه أليس كذلك؟ وأردفت ترمقها بنظرة حارقة سألتها: هل تريدين كسب بعض المال ..

ـــ نعم ..

ـ بثقة: ذلك سهل .. سأعرِّفك على رجل سيُعطيك مُقابل الساعة مئة دولار .. إنه يُحب الشقراوات وإن أحسنت التصرف فسيمنحك أكثر .. هذا

وإن قبلتِ فلي أجر مقابل مساعدتك .. عشرون دولارًا لا غير مُقابل كل مئة تحصلين عليها .. ها .. ماذا قلتِ؟

ــ ظلت تنظر إليها لبعض الوقت كالشاردةً ثمَّ أجابت بصوت مبحوح: مئة دولار ..

ــ نعم مئة دولار وأكّدت: ولي عشرون مقابل مساعدتك ..

ــ نهضت بصعوبة .. طلبت من صغيرتها أن تعتني بأخيها أن تنتظرها ريثما تعود .. دقائق أتى بعدها يتباهى بمركبته الفارهة .. ما إن رآها حتى أُعجب بها بالرغم من شحوبها ونحولها .. جعل يُداعب خصلات شعرها وهي تصدُّ عنه يمنة وشمالا حتى إذا ما قبض على ذراعيها دفعته بقوة وسحبت نفسها إلى الوراء: لا أريد .. لا أريد .. أفضل الموت على هذا ..

ــ عزيزتي .. سأدفع لك الضعف .. ما رأيك .. إلا أنها تجاهلته واستمرت في طريقها ..

ــ فنادتها مذكِّرة إيّاها: أطفالك سيموتون من الجوع أيتها الحمقاء فاندفعت في وجهها كالموج الغاضب: وما أدراك .. هل تعلمين الغيب .. أخبريني .. هل كُلُّ الناس يموتون بسبب الجوع؟ ألم تسمعي يومًا بأُناس رحلوا ببطون مُترعة؟ .. ثمّ ومن تكوني أنت حتى تنصحيني .. أنت كحال كُلُّ النسوة حولك .. ميتة منذ زمن وتدَّعين الحياة .. اصمتي .. وأبعدي

كلبك المسعور هذا قليلا إن كنت تريدين حقًّا مساعدتي .. ابتعدت إلا أنها سُرعان ما ترنَّحت لتسقط على الأرض مغمىً عليها: مالذي جرى لها؟

ــ لقد ارتشفت شيئًا من مشروب الطاقة خاصتي والذي لم تستسغه كما لم أستسغ حديثها .. هيا ساعدني لإدخالها قبل أن تنهض ..

ــ كم أحبُّك ..

ــ عبِّر عن ذلك بالمال عزيزي ..

ــ انطلق بها .. دقائق واستيقظت .. تلفَّتت حولها .. علِمت .. حاولت ثنْيه .. إيقافه ولمّا لم تفلح رمت بنفسها خارجًا .. كادت مركبة أن تدهسها ومن حُسن حظِّها أنها تفادتها .. نهضت مُثقلة بالأوجاع .. بالمخاوف والشكوك التي جعلت أوجاعها تتفاقم .. أخذت تسأل هذا وذاك عن طريق تكتنفه المومسات اللاتي تفاجأن بها .. بحالها الذي يستجلب الآهات وانبرت نحو البُقعة حيث كانت هناك .. لم تكن ولم يكن هناك .. نادت وما من مجيب .. خرجت تسأل عنهم وإذ به أمامها .. لقد عاد بإلحاح شديد .. لم يستسلم بعد: عزيزتي .. أعتذر عمّا بدر مني .. أنت من دفعني إلى ذلك .. فأنتُنَّ نقطة ضعفي .. الشقراوات .. المُتوحشات منهنّ خاصة .. سأدفع لك ألف دولار فقط لا تخيِّبي ظني هذه المرة .. تجاهلته .. لحق بها فصدَّته وكان قد ضاق ذرعًا بها فحاول إرغامها

فتعاركت معه إلا أن المُتفرِّج سيعلم يقينًا أنّها معركة خاسرة منذ البداية .. فأنّى لغصن سنديان يابس أن يقف في وجه إعصار لا يرحم، سيأكل الأخضر واليابس إلا أنّها بالرغم من ذلك دافعت عن نفسها قدر استطاعتها حتى خارت قواها وانهارت .. إنّها تشعر بالظلم وباليأس وهي تنظر إليه .. إلى ابتسامته التي ملأت شدقيْه .. دفعت راحتها في وجهه .. في محاولة يائسة لصدِّه .. لقد آن أوان الاستسلام فاستسلمت إلا أنها لحظة مرَّت ثم اختفت حينما أتت إحداهن .. دافعت عنها بشراسة ليخرج خاسرا مع خدوش .. جروح وملابس مُمزقة .. مع تهديد صارم بقطع رزقها .. ساعدتها .. طلبت منها الرحيل حالا قبل أن يعود .. سألتها فأجابت .. أنَّ رجالا أتوا يبحثون عنهم فدلَّتهم تلك الماكرة على مكانهم غير أنهم لم يكونوا هناك .. بحثوا طويلا ثُمَّ رحلوا بعد أن بصقوا في وجهها: هي غاضبة .. قادرة على فِعل أيِّ شيء .. من الأفضل أن ترحلي .. فالمكان لم يُعد آمنا ..

ــ وماذا عنك؟

ــ لا تقلقي .. فقط اذهبي ..

ــ ما إن ذهبت حتى أتت تلك الماكرة من بُصِق في وجهها تسأل: أين هي؟

ــ لقد رحلت ..

ــ أيتها الحمقاء .. ألم أمنعك من مساعدتها .. إنه غاضب ولا سبيل لتهدئته .. ستأتين معي غدا .. سترضينه من دون مقابل .. عسى أن يتجاوز عنك ..

ــ لا تُتْعبي نفسك .. فأنا راحلة عن هذا المكان وإلى الأبد ..

ــ ولكن لِمَ؟

ــ لا أريد أن أكون ميِّتة تدَّعي الحياة ..

ــ أصدَّقتِ تلك الغبية .. هي بحاجة إلى المال .. لن تموت ولن تدع أطفالها عُرضة للموت أيضا .. ستحصل عليه بطريقة أو بأخرى .. إنها مسألة وقت ومبادئ ليس إلا ..

ــ مال .. نعم .. لقد نسيت إعطاءها بعض المال ..

حاولت اللحاق بها ولكنها كانت قد اختفت ..

عادت أدراجها .. تخطو بمشقة .. تستعين بالنتوءات البارزة من جدران حقيرة تنثر الرماد وسط مكان موحش .. مُعتم ليس بأشد من العتمة التي تشغل صدرها .. تُنادي بالرمق الأخير المُتبقي من أنفاسها .. إنها في شتات .. بحاجة إلى من يواسيها .. من يضُخ الدماء كي يُحيي خافقًا .. كي يُضيء مَبسمًا .. كي يوقف هدير دمعها: أمي أمي .. ما إن رأتها حتى احتضنتها .. ضمَّتها إلى صدرها بقوة: أين كنتِ؟

ــ خشيت أن يجدوني فاختبأت هناك؟

ــ حسنًا فعلتِ .. أمسكت يدها، حاولت جرَّها إلى مخبئها .. غرفة مهجورة خلف سوق شعبي مُكتظ بالناس: دعيني عزيزتي وعودي .. فأنا بمأمن هنا .. أحضرت أخاها وجلست قُرب والدتها .. أخرجت المنديل تمسح ما تناثر من دمعها، تواسيها قائلة: أمي نحن بخير .. لا تقلقي ..

ــ تفاقم وجعها .. أمام عجزها .. ضِعف فلذة كبدها وجوعها .. أمام حال رضيعها الذي لم يعُد يبكي: لستِ أنتِ .. من يجب عليه مَسح دمعي، بل أنا .. من يجب عليه فِعل ذلك .. أعتذر ..

لم تغفُ الصغيرة بل ظلَّت قُرب أمها ترعاها حتى غفت .. تسلَّلت خارجًا تبحث عن مشترٍ للمنديل (تعمل بوصية عمِّها) .. ولكن من الذي يتجرَّأ على شراء منديل باهت اللون مُتذبذب الأطراف .. حاولت .. توسَّلت .. بذلت جهدها ولكن ما من فائدة إلا أنها لم تستسلم .. استمرت وجعلت تعرضه على المارة .. كان من بينهم امرأة ما إن رأته حتى استأذنتها بلَمسه .. تأمّلته لثوان: صغيرتي من أين لك هذا المنديل؟

ــ أهداني إيّاهُ عمي ..

ــ وأين هو ؟

ــ لا أعلم .. صمتت فرجتها أن تشتريه: إنه بمئة دولار فقط ..

ــ وما حاجتك إلى هذا المبلغ الكبير ..

ــ أمي تعبة بحاجة إلى الطعام وكذاك أخي ..

ــ وماذا عنك ألستِ جائعة؟

ــ نعم سأتناول الطعام معهم ..

ــ هل أستطيع رؤيتهم؟

ــ لا .. لا تستطيعين .. هيا أرجوك أعطيني المئة دولار ..

منحتها إيّاها وجرت بابتسامة عريضة .. حاولت إيقاظ أمها التي لم تستيقظ .. حاولت مُجدّدا فلم تفلح .. جعلت تصرخ فيها وتبكي وهي تنفضها .. خفقات قلبها تجري كالدمع الذي يجري حثيثا على خدِّها .. خائفة مذعورة وسط صمت يلفُّها بإحكام ولا زالت حتى تفاجأت بالسيدة صاحبة المنديل الجديدة .. طمأنتها .. ادعت أنّها خالتها .. أمرت الحراس أن ينقلوا الأم ورضيعها إلى المستشفى حالا بينما اصطحبت الصغيرة معها ..

ظلَّت تنظر إلى المنديل تقلِّبه وهي تجيب على أسئلتها التي لم تتوقف والتي كان آخرها: خالتي هل أعجبكِ المنديل؟

ــ أجابتها تسترجع الماضي: لن تُصدِّقي .. لقد كُنت أملك هذا المنديل يومًا ثمَّ التفتت إلى السائق تسأله: هل أهديت زوجتك المنديل؟

ــ بارتباكٍ واضح وباعتذار خجِل: أعتذر سيدتي لأسباب عدة أهديته لشخص آخر ..

ــ امم ..

ــ سيدتي أعتذر ..

ــ لا عليك .. الذنب ليس ذنبك .. إنّه يبقى ذكرى جميلة ما كان عليَّ التفريط بها منذ البداية ..

تمَّ القبض على الزوج مُتلبسًا بينما رحلت العائلة بصحبة السيدة التي اكتنفتها ووفرت لها الأمان .. السيدة ذاتها التي دفعت نصف ثروتها لقضاء ليلة بصحبة الرجل الذي تُحب .. تزوَّجت مُؤخرا من رجل استحقَّها بجدارة ..

وحقيقة ..

أنَّ منديلي لم يعُد برّاقا مُلفتًا للأنظار ..

ناعمًا كما اعتاد أن يكون ..

إلا أنّه لا يزال مُحتفظا بنقوشه التي جعلت منه مُتفرِّدا ..

وبعطره الذي عاد بعودة صاحبه الذي منحه مكانته التي تليق به ..

داخل قلبه وقريبا منه ..

منديلي .. كان حاضرا في كلِّ حدثٍ من الأحداث التي ذكرتها آنفًا

إلا أنَّه لم يكن شاهدا على الإجابات التي لم أرسم حروفها بعد ..

ــ لِمَ عليَّ العودة معك؟

ــ لِمَ تخليتِ عنه؟

ــ لِمَ ترغبين في رحيلي؟

ــ لِمَ فعلتِ ذلك؟

ــ لِمَ قبَّلتني؟

ــ لِمَ قتلت؟

ــ لِمَ قَبلتِ؟

ــ لِمَ أفلست .. لِمَ سرقت وخدعت ؟

ــ لِمَ تزوجتني؟

ــ ولِمَ سمحتِ له بذلك؟

ــ أيها الأحمق .. لِمَ فعلت ذلك؟

أسئلة تتالت وأجوبة اندست .. تدثَّرت بالفراغ .. آن الأوان لها أن تكشف عن نفسها ..

هي إجابةٌ واحدة .. لظروف تعدَّدت ..

لأجناس من البشر لم يختلفوا على المبدأ بينما تمايزوا في الوسيلة ..

" لأني أحبك "

نعم .. فالحب هو الإحساس الوحيد الذي لا يقبل المساومة .. المنافسة أو المشاركة ..

يغفر لمن يشاء .. يختلق الكذبة ويتمسَّك بها ..

مغرورا ولا زال ..

إلا أنَّه بالرغم من كلِّ ذلك ..

يبقى .. جميلا .. مُرهفًا .. بسيطًا في معناه ..خالٍ من التعقيد ..

يبدو .. كاللوحة المُعلَّقة دون إطار ..

تنقاد أناملك تلقائيًا كي تتلمَّس غشاءها ..

فتنساب دون إرادة منك لتصبح داخل اللوحة لا خارجها ..

أنت الآن جزء لا يتجزَّأ من عالم تدور أفلاكه حول نواة واحدة أصلها من حرفين .. ولن يملَّ الحُّب منك حتى تملْ ..

ولن تملَّ حتى تصبح خارج الإطار ..

ولن تفعل ..

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت
أستغفرك وأتوب إليك

تمت بحمد الله

الفهرس

مقدمة..... ٥

زوجة بمقابل..... ٧

هوسٌ سخيف..... ١٣

فقط أنا..... ٢١

صراع مع الذكريات ٣٥

العاشق الصغير ٤٧

خفقات..... ٥٧

لغة غير مرئية (١) ٧٥

لغة غير مرئية (٢) ٨٧

الشباك المنكوب ٩٣

طائر الفلامنغو..... ١٠٥

نهاية الرحلة ١١٩

رسالتنا في المكتبة العربية للنشر والتوزيع:

نشر كل إنتاج إبداعي بجودة عالية وأفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، حتى لا ينزف الوعي من ثقوب الذاكرة، بأعمال تحترم قيم مجتمعنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسّخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة، والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.